كتاب الشعب

إحياء علوم الدّين

للإمام أبى حامد الغزالى

الجزء الأول

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣١٨١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله أوّلاً ، حمداً كثيراً متواليًا ، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين . وأصلي وأسلم على رسله ثانياً، صلاة تستغرق مع سيد البشر سائرَ المرسلين . وأستخيره تعالي ثالثاً فيما انبعث له عزمى من تحرير كتاب فى إحياء علوم الدين . وأنتدب لقطع تعجبك رابعًا أيها العاذل المتغالي فى العذل من بين زمرة الجاحدين، المسرف فى التقريع والإنكار من بين طبقات المنكرين الغافلين

فلقد حلّ عن لسانى عقدة الصمت ، وطوقنى عهدة الكلام وقلادة النطق، ما أنت مثابر عليه من العمي عن جلية الحق ، مع اللجاج فى نصرة الباطل وتّحسين الجهل ، والتشغيب على من آثر النزوع قليلا عن مراسم الخلق ، ومال ميلا يسيراً عن ملازمة الرسم ، إلي العمل بمقتضى العلم ، طمعاً فى نيل ما تعبده الله تعالي به من تزكية النفس وإصلاح القلب ، وتداركا لبعض مافرط من إضاعة العمر يأساً من تمام التلافى والجبر ، وانحيازاً عن غمار من قال فيهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أحيا علوم الدين فأينعت بعد اضمحلالها ، وأعيا فهوم الملحدين عن دركها فرجعت بكلالها . أحمده وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأثقالها ، وأعبده وأستعين به لعظام الأمور وعضالها . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها ، واقية من حلول الدركات وأهوالها . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أطلع به فجر الايمان من ظلمة القلوب وضلالها ، وأسمع به وقر الآذان وجلا به رين القلوب بصقالها . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لاتصالها .

(وبعد) فلما وفق الله تعالى لاكمال الكلام على أحاديث إحياء علوم الدين فى سنة إحدى وخمسين «*» تعذر الوقوف على بعض أحاديثه ، فأخرت تبييضه الى سنة ستين ، فظفرت بكثير مما عزب عنى علمه ، ثم شرعت فى تبييضه فى مصنف متوسط حجمه ، وأنا مع ذلك متباطئ فى إكماله غير متعرض لتركه وإهماله . إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف عليه ، وتكرر السؤال من جماعة فى إكماله، فأجبت وبادرت إليه ، ولكنى اختصرته فى غاية الاختصار ، ليسهل تحصيله وحمله فى الأسفار . فاقتصرت فيه علي ذكر طرف الحديث وصحابيه ومخرجه وبيان

«*» أى بعد السبعمائة ، وكان رحمه الله إذ ذاك فى السابعة والعشرين من عمره. اهـ مصححه

صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه[١]: « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِهِ »

ولعمرى إنه لاسبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذى عم الجم الغفير ؛ بل شمل الجماهير ، من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر ، والجهل بأن الأمر إدّ ، والخطب جد ، والآخرة مقبلة، والدنيا مدبرة، والأجل قريب ، والسفر بعيد ، والزاد طفيف والخطر عظيم ، والطريق سد ، وماسوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد

فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ؛ وقد شغر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفا ؛ فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً، حتي ظل علم الدين مندرساً، ومنار الهدى فى أقطار الأرض منطمساً . ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام ، عند تهاوش الطغام ؛ أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام؛ أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ؛ إذلم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، مما سماه الله سبحانه فى كتابه فقها

صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه ، فان ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة ، بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة ، وأبين ما ليس له أصل فى كتب الأصول . والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسئول .

فان كان الحديث فى الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه اليه ، وإلا عزوته إلى من خرجه من بقية الستة ، وحيث كان فى أحد الستة لم أعزه إلى غيرها إلا لغرض صحيح ، بأن يكون فى كتاب التزم مخرجه الصحة ، أو يكون أقرب إلى لفظه فى الاحياء . وحيث كرر المصنف ذكر الحديث فان كان فى باب واحد منه اكتفيت بذكره أول مرة ، وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثا لغرض أو لذهول عن كونه تقدم ، وإن كرره فى باب آخر ذكرته ونبهت على أنه قد تقدم ، وربما لم أنبه على تقدمه لذهول عنه . وحيث عزوت الحديث لمن خرجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه ، بل قد يكون بلفظه ، وقد يكون بمعناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات . وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت ما يغنى عنه غالباً ، وربما لم أذكره .

وسميته « المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار ، فى تخريج ما فى الاحياء من الأخبار » جعله الله خالصاً لوجهه الكريم ، ووسيلة إلى النعيم المقيم .

أحاديث الخطبة

(١) حديث أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه : الطبرانى فى الصغير والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أبى هريرة باسناد ضعيف

وحكمة، وعلما وضياء ونوراً، وهداية ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطويا ؛ وصار نسياً منسياً

ولما كان هذا ثلما فى الدين ملمًّا، وخطباً مدلهما، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما، إحياءً لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحا لمناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين

وقد أسسته على أربعة أرباع، وهى : ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات. وصدّرت الجملة بكتاب العلم لأنه غاية المهم، لأكشف أولاً عن العلم الذى تعبد الله على لسان رسوله صلي الله عليه وسلم الأعيان بطلبه، إذ قال رسول الله صلي الله عليه وسلم (١) «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» وأميز فيه العلم النافع من الضار، إذ قال صلى الله عليه وسلم: «نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ» وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب، وانخداعهم بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب :

كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة وكتاب أسرار الزكاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرءان، وكتاب الأذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب آداب الأكل، وكتاب آداب النكاح، وكتاب أحكام الكسب، وكتاب الحلال والحرام، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق، وكتاب العزلة، وكتاب آداب السفر، وكتاب السماع والوجد، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب رياضة النفس ؛ وكتاب آفات الشهوتين : شهوة البطن ؛ وشهوة الفرج، وكتاب آفات اللسان، وكتاب آفات الغضب والحقد، والحسد

---

(١) حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم : ابن ماجه من حديث أنس وضعفه احمد والبيهقي وغيرهما

(٢) حديث نعوذ بالله من علم لا ينفع : ابن ماجه من حديث جابر باسناد حسن

وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ،وكتاب ذم الكبر ، والعجب ،وكتاب ذم الغرور

وأما ربع المنجيات ،فيشتمل علي عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت

فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ، ودقائق سننها ، وأسرار معانيها ، مايضطر العالم العامل اليه ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لايطلع عليه . وأكثر ذلك مما أهمل فى فن الفقهيات

وأما ربع العادات ، فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع فى مجاريها ، وهى مما لا يستغنى عنها متدين

وأما ربع المهلكات ، فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرءان بإماطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذى منه يتولد ، ثم الآفات التى عليها تترتب ، ثم العلامات التي بها تتعرف ، ثم طرق المعالجة التى بها منها يتخلص . كل ذلك مقرونا بشواهد الآيات والأخبار والآثار

وأما ربع المنجيات ، فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين ، التي بها يتقرب العبد من رب العالمين ، وأذكر فى كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التى منها تستفاد ، وعلامتها التى بها تتعرف ، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ماورد فيها من شواهد الشرع والعقل

ولقد صنف الناس فى بعض هذه المعانى كتباً ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور : (الأول) حل ما عقدوه وكشف ما أجلوه . (الثانى) ترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه (الثالث) إيجاز ما طولوه وضبط ماقرروه . (الرابع) حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه (الخامس) تحقيق أمور غامضة اعتاصت علي الأفهام لم يتعرض لها فى الكتب أصلا ، إذ الكل وإن تواردوا علي منهج واحد فلا مستنكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه ، أو لايغفل عن التنبيه ولكن يسهو عن إيراده فى الكتب

أو لايسهو ولـكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف .فهذه خواص هذا الـكتاب ، مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم

وإنما حملني علي تأسيس هذا الـكتاب على أربعة أرباع أمران :

(أحدهما وهو الباعث الأصلي) : أن هذا الترتيب فى التحقيق والتفهيم كالضرورى ؛ لأن العلم الذى يُتوجّه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة ، وعلم المكاشفة ، وأعني بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف المعلوم فقط ، وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به . والمقصود من هذا الـكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لا رخصة فى إيداعها الكتب ، وإن كانت هى غاية مقصد الطالبين، ومطمح نظر الصديقين ،وعلم المعاملة طريق اليه ؛ ولـكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا فى علم الطريق والارشاد اليه. وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والايماء على سبيل التمثيل والاجمال ، علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال ، والعلماء ورثة الأنبياء ، فما لهم سبيل إلى العـدول عن نهج التأسى والاقتداء

ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر، أعنى العلم بأعمال الجوارح ، وإلى علم باطن، أعنى العلم بأعمال القلوب . والجارى على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التى هى بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم . فبالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين : ظاهر، وباطن ، والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة، والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود ، فكان المجموع أربعة أقسام ، ولا يشذ نظر فى علم المعاملة عن هذه الأقسام

(الباعث الثانى) : أنى رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة فى الفقه الذى صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى ، المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلتـه فى المنافسات . وهو مرتب علي أربعة أرباع ، والمتزيى بزى المحبوب محبوب ، فلم أبعد أن يكون تصوير الـكتاب بصورة الفقه تلطفاً في استدراج القلوب . ولهذا تلطف بعض من رام استمالة قلوب الرؤساء إلى الطب ، فوضعه على هيئة تقويم النجوم ، موضوعا فى الجداول والرقوم ، وسماه تقويم الصحة ، ليكون أنسهم بذلك الجنس جاذباً لهم إلى المطالعة ، والتلطف فى اجتذاب القلوب إلى العلم الذى يفيد حياة الأبد ،أهم من التلطف فى اجتذابها إلى الطب الذى لا يفيد إلا صحة الجسد

فثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح، المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد، فأين منه الطب الذى يعالج به الأجساد، وهي معرضة بالضرورة للفساد فى أقرب الآماد ؟ فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد، إنه كريم جواد .

كتاب العلم

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

(الباب الأول) فى فضل العلم والتعليم والتعلم . (الباب الثانى) فى فرض العين وفرض الكفاية من العلوم ، وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين ، وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا (الباب الثالث) فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منها ، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره (الباب الرابع) فى آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل . (الباب الخامس) فى آداب المعلم والمتعلم. (الباب السادس) في آفات العلم والعلماء، والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة . (الباب السابع) في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار

الباب الأول

في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدها من القرءان قوله عز وجل: (شَهِدَ ٱللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَٱلمَلائِكَةُ وَأُولُوا ٱلعِلْمِ قَائِمًا بِٱلقِسْطِ) . فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنّى بالملائكة ، وثلّث بأهل العلم . وناهيك بهذا شرفا وفضلا ، وجلاء ونبلا . وقال الله تعالى (يَرْفَعِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلعِلْمَ دَرَجَاتٍ) . قال ابن عباس رضى الله عنهما: «للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام» . وقال عز وجل: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ). وقال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلعُلَمَاءُ) . وقال تعالى: (قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلكِتَابِ) . وقال تعالى: (قَالَ ٱلَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ ٱلكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ) تنبيهاً على أنه اقتدر بقوة العلم . وقال عز وجل: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) بيّن أن عظم

قدر الآخرة يعلم بالعلم . وقال تعالى: (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ) وقال تعالى : (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) ردّ حكمه فى الوقائع إلى استنباطهم ، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله

وقيل فى قوله تعالى(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ) يعنى العلم (وَرِيشًا) يعنى اليقين (وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ) يعنى الحياء

وقال عزوجل: (وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) . وقال تعالى:(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ) . وقال عزوجل: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ). وقال تعالى:(خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ) . وإنما ذكر ذلك فى معرض الامتنان

(وأما الأخبار) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ يُرِدِ ٱللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي ٱلدِّينِ وَيُلْهِمْهُ رُشْدَهُ ». وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « ٱلْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ ٱلْأَنْبِيَاءِ » . ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « يَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ » . وأيّ منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له ، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تَزِيدُ ٱلشَّرِيفَ شَرَفًا، وَتَرْفَعُ ٱلْمَمْلُوكَ حَتَّى يُدْرِكَ مَدَارِكَ ٱلْمُلُوكِ » . وقد نبه بهذا على ثمرته فى الدنيا ، ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى

وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « خَصْلَتَانِ لَا يَكُونَانِ فِي مُنَافِقٍ : حُسْنُ سَمْتٍ ، وَفِقْهٌ فِي ٱلدِّينِ » . ولا تشكنّ فى الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان، فانه ما أراد به الفقه الذى ظننته ،

﴿ كتاب العلم — الباب الأول ﴾

(١) حديث من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ويلهمه رشده : متفق عليه من حديث معاوية دون قوله ويلهمه رشده . وهذه الزيادة عند الطبرانى فى الكبير

(٢) حديث العلماء ورثة الأنبياء : أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبي الدرداء

(٣) حديث يستغفر للعالم مافى السموات وما فى الأرض : هو بعض حديث أبي الدرداء المتقدم

(٤) حديث الحكمة تزيد الشريف شرفا ـ الحديث: أبو نعيم فى الحلية وابن عبدالبر فى بيان العلم وعبد الغنى الأزدى فى آداب المحدث من حديث أنس باسناد ضعيف

(٥) حديث خصلتان لاتجتمعان فى منافق ـ الحديث: الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حديث غريب

وسيأتي معنى الفقه . وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا ، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برىء بها من النفاق والرياء . وقال صلى الله عليه وسلم(١) « أَفْضَلُ النَّاسِ الْمُؤْمِنُ الْعَالِمُ الَّذِي إِنِ احْتِيجَ إِلَيْهِ نَفَعَ ، وَإِنِ اسْتُغْنِيَ عَنْهُ أَغْنَى نَفْسَهُ ». وقال صلى الله عليه وسلم(٢) « الْإِيمَانُ عُرْيَانٌ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى وَزِينَتُهُ الْحَيَاءُ وَثَمَرَتُهُ الْعِلْمُ » . وقال صلى الله عليه وسلم(٣) « أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ ، أَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ فَدَلُّوا النَّاسَ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْجِهَادِ فَجَاهَدُوا بِأَسْيَافِهِمْ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ » . وقال صلى الله عليه وسلم(٤) « لَمَوْتُ قَبِيلَةٍ أَيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَالِمٍ ». وقال عليه الصلاة والسلام(٥) « النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا » . وقال صلى الله عليه وسلم(٦) « يُوزَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ بِدَمِ الشُّهَدَاءِ »

وقال صلى الله عليه وسلم(٧) « مَنْ حَفِظَ عَلَى أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا مِنَ السُّنَّةِ حَتَّى يُؤَدِّيَهَا إِلَيْهِمْ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا وَشَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ». وقال صلى الله عليه وسلم(٨) « مَنْ حَمَلَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعِينَ حَدِيثًا لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقِيهًا عَالِمًا ». وقال صلى الله عليه وسلم(٩) « مَنْ تَفَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَهَمَّهُ وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » . وقال صلى الله

---

(١) حديث أفضل الناس المؤمن العالم الحديث : البيهقي فى شعب الايمان موقوفا على أبى الدرداء باسناد ضعيف ولم أره مرفوعا

(٢) حديث الايمان عريان ـ الحديث : الحاكم فى تاريخ نيسابور من حديث أبى الدرداء باسناد ضعيف

(٣) حديث أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ـ الحديث : أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

(٤) حديث لموت قبيلة أيسر من موت عالم ـ الطبرانى وابن عبد البر من حديث أبى الدرداء: وأصل الحديث عند أبي الدرداء

(٥) حديث الناس معادن ـ الحديث :متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٦) حديث يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء ـ ابن عبد البر: من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف

(٧) حديث من حفظ على أمتى أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة ـ ابن عبد البر : فى العلم من حديث ابن عمر وضعفه

(٨) حديث من حمل من أمتى أربعين حديثاً لقى الله يوم القيامة فقيها عالما ـ ابن عبد البر: من حديث أنس وضعفه

(٩) حديث من تفقه فى دين الله كفاه الله همه ـ الحديث : الخطيب فى التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الزبيدى باسناد ضعيف

عليه وسلم(١) « أَوْحَى ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : يَا إِبْرَاهِيمُ إِنِّي عَلِيمٌ أُحِبُّ كُلَّ عَلِيمٍ ». وقال صلى الله عليه وسلم(٢) «ٱلْعَالِمُ أَمِينُ ٱللهِ سُبْحَانَهُ فِي ٱلْأَرْضِ »

وقال صلى الله عليه وسلم(٣) « صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحُوا صَلَحَ ٱلنَّاسُ ، وَإِذَا فَسَدُوا فَسَدَ ٱلنَّاسُ : ٱلْأُمَرَاءُ وَٱلْفُقَهَاءُ » . وقال عليه السلام(٤) « إِذَا أَتَى عَلَيَّ يَوْمٌ لَا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْمًا يُقَرِّبُنِي إِلَى ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ ». وقال صلى الله عليه وسلم في تفضيل العلم على العبادة والشهادة(٥) «فَضْلُ ٱلْعَالِمِ عَلَى ٱلْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي ». فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة ، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم، وإن كان العابد لايخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها، ولولاه لم تكن عبادة

وقال صلى الله عليه وسلم(٦) « فَضْلُ ٱلْعَالِمِ عَلَى ٱلْعَابِدِ كَفَضْلِ ٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ ٱلْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ ٱلْكَوَاكِبِ » وقال صلى الله عليه وسلم(٧) « يَشْفَعُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ :ٱلْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ ٱلْعُلَمَاءُ ثُمَّ ٱلشُّهَدَاءُ » فأعظم بمرتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة مع ماورد في فضل الشهادة . وقال صلى الله عليه وسلم(٨) « مَا عُبِدَ ٱللهُ تَعَالَى بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهٍ فِي ٱلدِّينِ ، وَلَفَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى ٱلشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ وَعِمَادُ هَذَا ٱلدِّينِ ٱلْفِقْهُ » . وقال صلى الله عليه

---

(١) حديث أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إني عليم أحب كل عليم: ذكره ابن عبدالبر تعليقا، ولم أظفر له باسناد

(٢) حديث العالم أمين الله في الأرض ؛ ابن عبدالبر من حديث معاذ بسند ضعيف

(٣) حديث صنفان من امتي إذا اصلحوا اصلح الناس ـ الحديث: ابن عبدالبر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٤) حديث إذا أتي على يوم لا أزداد فيه علماً يقربني الحديث : الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في العلم من حديث عائشة باسناد ضعيف

(٥) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي : الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح

(٦) حديث فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب : أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان ، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم

(٧) حديث يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء : ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان باسناد ضعيف

(٨) حديث ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ـ الحديث: الطبراني في الأوسط وأبو بكر الآجري في كتاب فضل العلم وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف ، وعند الترمذي و ابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف . فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد

وسلم[١] «خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ، وَخَيْرُ الْعِبَادَةِ الْفِقْهُ» . وقال صلى الله عليه وسلم[٢] «فَضْلُ الْمُؤْمِنِ الْعَالِمِ عَلَى الْمُؤْمِنِ الْعَابِدِ بِسَبْعِينَ دَرَجَةً». وقال صلى الله عليه وسلم[٣] «إِنَّكُمْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ كَثِيرٍ فُقَهَاؤُهُ قَلِيلٍ قُرَّاؤُهُ وَخُطَبَاؤُهُ قَلِيلٍ سَائِلُوهُ كَثِيرٍ مُعْطُوهُ، الْعَمَلُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْعِلْمِ، وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ كَثِيرٌ خُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ مُعْطُوهُ كَثِيرٌ سَائِلُوهُ، الْعِلْمُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ» . وقال صلى الله عليه وسلم[٤] «بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْعَابِدِ مِائَةُ دَرَجَةٍ بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ حُضْرُ الْجَوَادِ الْمُضَمَّرِ سَبْعِينَ سَنَةً» . و «قيل يارسول الله[٥] أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فقال: الْعِلْمُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فقيل: أَيُّ الْعِلْمِ تُرِيدُ؟ قال صلى الله عليه وسلم: الْعِلْمُ بِاللهِ سُبْحَانَهُ، فقيل له: نسأل عن العمل وتجيب عن العلم؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إِنَّ قَلِيلَ الْعَمَلِ يَنْفَعُ مَعَ الْعِلْمِ بِاللهِ، وَإِنَّ كَثِيرَ الْعَمَلِ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْجَهْلِ بِاللهِ». وقال صلى الله عليه وسلم[٦] «يَبْعَثُ اللهُ سُبْحَانَهُ الْعِبَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَبْعَثُ الْعُلَمَاءَ ثُمَّ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْعُلَمَاءِ إِنِّي لَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ إِلَّا لِعِلْمِي بِكُمْ، وَلَمْ أَضَعْ عِلْمِي فِيكُمْ لِأُعَذِّبَكُمْ، اذْهَبُوا فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» . نسأل الله حسن الخاتمة

(وأما الآثار) : فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكُميل: يا كميل: العلم خير من المال، العلم يحرُسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تَنقُصه

---

(١) حديث خير دينكم أيسره وأفضل العبادة الفقه ـ ابن عبد البر: من حديث أنس بسند ضعيف، والشطر الأول عند أحمد من حديث محجن بن الأدرع باسناد جيد، والشطر الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف

(٢) حديث فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة: ابن عدى من حديث أبي هريرة باسناد ضعيف، ولأبي يعلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف

(٣) حديث إنكم أصبحتم فى زمان كثير فقهاؤه: الطبراني من حديث حزام بن حكيم عن عمه. وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف

(٤) حديث بين العالم والعابد مائة درجة: الأصفهاني فى الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال: سبعون درجة، بسند ضعيف. وكذا رواه صاحب مسند الفردوس من حديث أبي هريرة

(٥) حديث قيل له يارسول الله أى الأعمال أفضل؟ فقال العلم بالله ـ الحديث: ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف

(٦) حديث يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ـ الحديث: الطبراني من حديث أبي موسى بسند ضعيف

النفقة والعلم يزكو بالانفاق . وقال عليّ أيضاً رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، واذا مات العالم ثلم فى الإسلام ثلمة لايسدها إلا خلف منه . وقال رضى الله تعالى عنه نظماً:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم   على الهدي لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه   والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبدا   الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود : ليس شيء أعز من العلم : الملوكُ حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خُيِّر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه . وسئل ابن المبارك مَن الناسُ ؟ فقال: العلماء، قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل فمن السِّفْلة ؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدين . ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التى يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم . فالانسان إنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك بقوة شخصه فإن الجمل أقوى منه ، ولا بعظَمه فإن الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطنا منه ، ولا ليجامع فان أخس العصافير أقوي على السفاد منه ،بل لم يخلق إلا للعلم . وقال بعض العلماء : ليت شعري أيّ شيء أدرك مَن فاته العلم ، وأيّ شيء فاته مَن أدرك العلم !

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أُوتِيَ الْقُرْآنَ فَرَأَى أَنَّ أَحَداً أُوتِيَ خَيْراً مِنْهُ فَقَدْ حَقَّرَ مَا عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى» . وقال فتح الموصلى رحمه الله : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب يموت؟ قالوا بلى، قال : كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت . ولقد صدق ، فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض، وموته لازم ،ولكنه لايشعر به ،إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه ، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح فى الحال وإن كان واقعا ، فاذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه ، وتحسر تحسراً عظيما ثم لاينفعه ، وذلك كإحساس الآمن من خوفه ، والمفيق من سكره ، بما أصابه من الجراحات فى حالة السكر أو الخوف ، فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء ، فان الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا

وقال الحسن رحمه الله : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موتُ رواته، فوالذي نفسى بيده ليودّن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم ، فان أحداً لم يولد عالما وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : تذاكُرُ العلم بعض ليلة أحب إلىّ من إحيائها . وكذلك عن أبى هريرة رضى الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله . وقال الحسن فى قوله تعالى : (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً) : إن الحسنة فى الدنيا هى العلم والعبادة ، وفى الآخرة هى الجنة . وقيل لبعض الحكماء : أىّ الأشياء تقتنى؟ قال : الأشياء التى إذا غرقت سفينتك سبحت معك ، يعنى العلم، وقيل أراد بغرق السفينة هلاك بدنه بالموت . وقال بعضهم : من اتخذ الحكمة لجاما اتخذه الناس إماما ، ومن عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار

وقال الشافعى رحمة الله عليه : من شرف العلم أن كل من نسب اليه ولو فى شىء حقير فرح ، ومن رفع عنه حزن . وقال عمر رضى الله عنه : يأيها النـاس عليكم بالعلم فان لله سبحانه رداءً يحبه ؛ فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه؛ فان أذنب ذنبا استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت . وقال الأحنف رحمه الله : كاد العلماء أن يكونوا أربابا ؛ وكل عز لم يوطّد بعلم فإلى ذل مصيره . وقال سالم بن أبى الجعد : اشترانى مولاى بثلثمائة درهم وأعتقنى ، فقلت بأى شىء أحترف ؟ فاحترفت بالعلم ، فما تمت لى سنة حتى أتانى أمير المدينة زائراً فلم آذن له

وقال الزبير بن أبى بكر : كتب إلىّ أبى بالعراق : عليك بالعلم فانك إن افتقرت كان لك مالا؛ وإن استغنيت كان لك جمالا . وحكي ذلك فى وصايا لقمان لابنه ؛ قال : يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ؛ فان الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء . وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت فى الماء والطير فى الهواء ، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره . وقال الزهري رحمه الله : العلم ذَكَر ولا يحبه إلا ذُكران الرجال

فضيلة التعلم

(أما الآيات) فقوله تعالى: (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ). وقوله عز وجل: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(وأما الأخبار) فقوله صلى الله عليه وسلم(١): «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ». وقال صلى الله عليه وسلم(٢): «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ». وقال صلى الله عليه وسلم(٣) «لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَتَعَلَّمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ». وقال صلى الله عليه وسلم(٤) «بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». وقال صلى الله عليه وسلم(٥) «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ» وقال صلى الله عليه وسلم «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ*» وقال عليه الصلاة والسلام(٦): «الْعِلْمُ خَزَائِنُ مَفَاتِيحُهَا السُّؤَالُ؛ أَلَا فَاسْأَلُوا فَإِنَّهُ يُؤْجَرُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ: السَّائِلُ، وَالْعَالِمُ وَالْمُسْتَمِعُ، وَالْمُحِبُّ لَهُمْ». وقال صلى الله عليه وسلم(٧) «لَا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى

---

(١) حديث من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ـ الحديث: مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع: أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال

(٣) حديث لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة: ابن عبد البر من حديث أبي ذر وليس إسناده بذاك والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر

(٤) حديث باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا: ابن حبان في روضة العقلاء وابن عبد الله موقوفا على الحسن البصري ولم أره مرفوعا إلا بلفظ خير له من مائة ركعة، رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر

(٥) حديث اطلبوا العلم ولو بالصين: ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس قال البيهقي متنه مشهور وأسانيده ضعيفة

(٦) حديث العلم خزائن مفاتيحها السؤال ـ الحديث: رواه أبو نعيم من حديث علي مرفوعا باسناد ضعيف

(٧) حديث لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله: الطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف

(*) انظر تخريجه في صفحة ٣ ج ١

جَهْلِهِ وَلَا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ » . وفى حديث أبى ذر رضى الله عنه[١] « حُضُورُ مَجْلِسِ عَالِمٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ ، وَعِيَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ ، وَشُهُودِ أَلْفِ جِنَازَةٍ » فقيل يارسول الله : ومن قراءة القرءان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « وَهَلْ يَنْفَعُ الْقُرْءانُ إِلَّا بِالْعِلْمِ ؟ » وقال عليه الصلاة والسلام[٢] : « مَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ لِيُحْيِيَ بِهِ الْإِسْلَامَ فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْجَنَّةِ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ »

(وأما الآثار) فقال ابن عباس رضى الله عنهما: ذللت طالبا فعززت مطلوبا . وكذلك قال ابن أبى مليكة رحمه الله : ما رأيت مثل ابن عباس : إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجها ؛ وإذا تكلم فأعرب الناس لسانا ؛ وإذا أفتى فأكثر الناس علما . وقال ابن المبارك رحمه الله : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ! وقال بعض الحكماء : إنى لا أرحم رجالا كرحمتى لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهم ؛ ورجل يفهم العلم ولا يطلبه . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: لأن أتعلم مسألة أحب إلىّ من قيام ليلة . وقال أيضا : العالم والمتعلم شريكان فى الخير ؛ وسائر الناس همج لا خير فيهم . وقال أيضا : كن عالما أو متعلما أو مستمعا ، ولا تكن الرابع فتهلك

وقال عطاء : مجلس علم يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو . وقال عمر رضى الله عنه : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهونُ من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعى رضى الله عنه : طلب العلم أفضل من النافلة . وقال ابن عبد الحكم رحمه الله: كنت عند مالك أقرأ عليه العلم فدخل الظهر ، فجمعت الكتب لأصلى ، فقال؛ ياهذا ما الذى قمت اليه بأفضل مما كنت فيه إذا صحت النية . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : من رأى أن الغُدوّ إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله

فضيلة التعليم

(أما الآيات) فقوله عزوجل؛ (وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) . والمراد هو التعليم والارشاد ، وقوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ

---

(١) حديث أبى ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة الحديث: ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبى ذر

(٢) حديث من جاءه الموت وهو يطلب العلم الحديث : الدارمي وابن السنى فى رياضة المتعلمين من حديث الحسن ، فقيل هو ابن على وقيل هو ابن يسار البصرى فيكون مرسلا

لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) وهو إيجاب للتعلم . وقوله تعالى: (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وهو تحريم للكتمان، كما قال تعالى في الشهادة : (وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) وقال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا آتَى اللَّهُ عَالِمًا عِلْمًا إِلَّا وَأَخَذَ عَلَيْهِ مِنَ الْمِيثَاقِ مَا أَخَذَ عَلَى النَّبِيِّينَ أَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُوهُ » . وقال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا) . وقال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) . وقال تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(وأما الأخبار) فقوله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً رضى الله عنه إلى اليمن [٢] « لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ تَعَلَّمَ بَابًا مِنَ الْعِلْمِ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أُعْطِيَ ثَوَابَ سَبْعِينَ صِدِّيقًا » وقال عيسى صلى الله عليه وسلم: « مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَابِدِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ الْعُلَمَاءُ : بِفَضْلِ عِلْمِنَا تَعَبَّدُوا وَجَاهَدُوا ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنْتُمْ عِنْدِي كَبَعْضِ مَلَائِكَتِي، اشْفَعُوا تُشَفَّعُوا ، فَيَشْفَعُونَ ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » . وهذا إنما يكون بالعلم المتعدى بالتعليم ، لا العلم اللازم الذى لا يتعدى

وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إِيَّاهُ وَلَكِنْ يَذْهَبُ بِذَهَابِ الْعُلَمَاءِ ، فَكُلَّمَا ذَهَبَ عَالِمٌ ذَهَبَ بِمَا مَعَهُ مِنَ الْعِلْمِ

---

(١) حديث ما آتى الله عالما علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين ـ الحديث : أبو نعيم فى فضل العالم العفيف من حديث ابن مسعود بنحوه وفى الخلعيات نحوه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث قال لمعاذ حين بعثه الى اليمن : لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم : أحمد من حديث معاذ ، وفى الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لعلى

(٣) حديث من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً: رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٤) حديث إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة ـ الحديث : أبو العباس الذهبي فى العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٥) حديث إن الله لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس ـ الحديث : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو

حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ إِلاَّ رُؤُسَاءَ جُهَّالاً إِنْ سُئِلُوا أَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ ». وقال صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ». وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « نِعْمَ الْعَطِيَّةُ وَنِعْمَ الْهَدِيَّةُ كَلِمَةُ حِكْمَةٍ تَسْمَعُهَا فَتَطْوِي عَلَيْهَا ثُمَّ تَحْمِلُهَا إِلَى أَخٍ لَكَ مُسْلِمٍ تُعَلِّمُهُ إِيَّاهَا تَعْدِلُ عِبَادَةَ سَنَةٍ ». وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَافِيهَا إِلاَّ ذِكْرَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَمَا وَالاَهُ أَوْ مُعَلِّمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا »

وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ سَمٰوَاتِهِ وَأَرْضِهِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ فِي الْبَحْرِ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ ». وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « مَا أَفَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ فَائِدَةً أَفْضَلَ مِنْ حَدِيثٍ حَسَنٍ بَلَغَهُ فَبَلَّغَهُ ». وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « كَلِمَةٌ مِنَ الْخَيْرِ يَسْمَعُهَا الْمُؤْمِنُ فَيُعَلِّمُهَا وَيَعْمَلُ بِهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ ». وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون اليه ، والثاني يعلمون الناس، فقال: « أَمَّا هٰؤُلاَءِ فَيَسْأَلُونَ اللهَ تَعَالَى فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا هٰؤُلاَءِ فَيُعَلِّمُونَ النَّاسَ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا » ثم عدل اليهم وجلس معهم

---

(١) حديث من علم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار : أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حديث حسن

(٢) حديث نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها ـ الحديث : الطبراني من حديث ابن عباس نحوه باسناد ضعيف

(٣) حديث الدنيا ملعونة ملعون مافيها ـ الحديث : الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حسن غريب

(٤) حديث إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير : الترمذي من حديث أبي أمامة وقال غريب وفي نسخة حسن صحيح

(٥) حديث ماأفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن ـ الحديث : ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسلا نحوه ، ولأبي نعيم من حديث عبدالله بن عمرو ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيده هدى أو ترده عن ردى

(٦) حديث كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها ـ الحديث : ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسلا نحوه ، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف : كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة

(٧) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله ـ الحديث : ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا بُقْعَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا بُقْعَةٌ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً » . فالأول ذكره مثلا للمنتفع بعلمه ، والثانى ذكره مثلا للنافع ، والثالث للمحروم منهما .

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ » الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٍ آتَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْخَيْرِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « عَلَى خُلَفَائِي رَحْمَةُ اللهِ ، قيل : وَمَنْ خُلَفَاؤُكَ ؟ قال : الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللهِ »

(وأما الآثار) فقد قال عمر رضى الله عنه : من حدّث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : مُعلّم الناس الخيرَ يستغفر له كلُّ شيء حتى الحوتُ فى البحر . وقال بعض العلماء : العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل . وروى أن سفيان الثورى رحمه الله قدم عسقلان فمكث لا يسأله إنسان ، فقال : اكروا لى لأخرج من هذا البلد ، هذا بلد يموت فيه العلم ! وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به . وقال عطاء رضى الله عنه : دخلت على سعيد بن المسيَّب وهو يبكى فقلت : مايبكيك ؟ قال : ليس أحد يسألنى عن شيء !

---

(١) حديث مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى موسى

(٢) حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث الدال على الخير كفاعله : الترمذى من حديث أنس وقال غريب ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى مسعود البدرى بلفظ من دل على خير فله مثل أجر فاعله

(٤) حديث لا حسد إلا فى اثنتين ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٥) حديث على خلفائي رحمة الله ـ الحديث: ابن عبدالبر فى العلم والهروى فى ذم الكلام من حديث الحسن فقيل هو ابن على وقيل ابن يسار البصرى فيكون مرسلا ولابن السنى وأبى نعيم فى رياضة المتعلمين من حديث على نحوه

وقال بعضهم . العلماء سُرج الازمنة ، كل واحد مصباح زمانه يستضىء به أهل عصره. وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم . أى أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حدّ البهيمية الى حدّ الانسانية . وقال عِكْرِمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل : وما هو ؟ قال : أن تضعه فيمن يُحسن حمله ولا يضيعه . وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم ؛ قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة .

وقيل : أول العلم الصمت ؛ ثم الاستماع ؛ ثم الحفظ ؛ ثم العمل ؛ ثم نشره . وقيل : علّم علمك من يجهل ، وتعلّم ممن يعلم ما تجهل ؛ فانك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت .

وقال معاذ بن جبل فى التعليم والتعلم ورأيته أيضاً مرفوعا : (١) تعلّموا العلم فان تعلّمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدِّين ؛ والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الإخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدَى بهم ، أدلة فى الخير تُقتَصُّ آثارهم وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى خُلتهم وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلَم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكر فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل ، وبه يعبد ، وبه يوحد ، وبه يمجد ، وبه يتورّع ، وبه توصل الأرحام . وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يُلهَمُه السعداء ، ويحرمه الأشقياء . نسأل الله تعالى حسن التوفيق

---

(١) حديث معاذ تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ـ الحديث بطوله : أبو الشيخ وابن حبان فى كتاب الثواب وابن عبد البر وقال ليس له اسناد قوى

فى الشواهد العقليه :

إعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم و نفاسته ، ومالم تفهم الفضيلة فى نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال ، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيداً حكيم أم لا وهو بعدُ لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها

والفضيلة مأخوذة من الفضل وهو الزيادة ، فاذا تشارك شيئان فى أمر واختص أحدهما بمزيد يقال: فَضَله وله الفضل عليه، مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشىء ، كما يقال الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه فى قوة الحمل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدة العدو وحسن الصورة ، فلو فرض حمار اختص بسلعة زائدة لم يقل إنه أفضل ، لأن تلك زيادة فى الجسم ونقصان فى المعنى ، وليست من الكمال فى شىء ، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لا لجسمه . فاذا فهمت هذا لم يخف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالاضافة إلي سائر الأوصاف، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالاضافة إلى سائر الحيوانات ، بل شدة العَدْو فضيلة فى الفرس وليست فضيلة على الاطلاق ، والعلم فضيلة فى ذاته وعلى الاطلاق من غير إضافة ، فانه وصف كمال الله سبحانه ، وبه شرف الملائكة والأنبياء ، بل الكيس من الخيل خير من البليد ، فهى فضيلة على الاطلاق من غير إضافة .

واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم الى مايطلب لغيره، وإلى مايطلب لذاته ، وإلى مايطلب لغيره ولذاته جميعا . فما يطلب لذاته أشرف وأفضل مما يطلب لغيره ، والمطلوب لغيره الدراهم والدنانير، فانهما حجران لا منفعة لهما ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يسّر قضاء الحاجات بهما لكانا والحصباء بمثابة واحدة . والذى يطلب لذاته فالسعادة فى الآخرة ، ولذة النظر لوجه الله تعالى . والذى يطلب لذاته ولغيره فكسلامة البدن ، فان سلامة الرجل مثلا مطلوبة من حيث إنها سلامة للبدن عن الألم ، ومطلوبة للمشي بها ، والتوصل الى المآرب والحاجات

وبهذا الاعتبار إذا نظرت إلي العلم رأيته لذيذاً فى نفسه ، فيكون مطلوبا لذاته ، ووجدته وسيلة الى دار الآخرة وسعادتها ، وذريعة الى القرب من الله تعالى ، ولا يتوصل إليه إلا به . وأعظم الأشياء رتبة فى حق الآدمي السعادة الأبدية ، وأفضل الأشياء ماهو وسيلة اليها ،

ولن يتوصل اليها إلا بالعلم والعمل ، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل . فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم ، فهو إذن أفضل الأعمال ، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته ، وقد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين ، والالتحاق بأفق الملائكة ومقارنة الملأ الأعلى . هذا فى الآخرة

وأما فى الدنيا فالعز والوقار ، ونفوذ الحكم على الملوك ، ولزوم الاحترام فى الطباع ، حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم مجبولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة ، بل البهيمة بطبعها توقر الانسان لشعورها بتمييز الانسان بكمال مجاوز لدرجتها .

هذه فضيلة العلم مطلقاً . ثم تختلف العلوم كما سيأتى بيانه وتتفاوت لامحالة فضائلها بتفاوتها

وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه ، فان العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل ، فكان تعليمه إفادة للأفضل . وبيانه : أن مقاصد الخلق مجموعة فى الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فان الدنيا مزرعة الآخرة ، وهى الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلا ، لا لمن يتخذها مستقراً ووطنا ، وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين ، وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر فى ثلاثة أقسام :

(أحدها) أصول لا قوام للعالم دونها وهى أربعة : الزراعة وهى لِلْمَطْعَم ، والحياكة وهى للملبَس ، والبناء وهو للمسكن ، والسياسة وهى للتأليف والاجتماع ، والتعاونِ على أسباب المعيشة وضبطها .

(الثانى) ماهى مهيئة لكل واحدة من هذه الصناعات وخادمة لها كالحدادة ، فانها تخدم الزراعة ، وجملة من الصناعات باعداد آلاتها كالحلاجة والغزل ، فانها تخدم الحياكة بإعداد عملها

(الثالث) ماهى متممة للأصول ومزينة : كالطحن والخبز للزراعة ، وكالقصارة والخياطة للحياكة ، وذلك بالاضافة الى قوام أمر العالم الأرضي مثل أجزاء الشخص بالاضافة الى جملته ، فانها ثلاثة أضرب أيضا : إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ، وإما خادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين والأعصاب والأوردة ، وإما مكملة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين

وأشرف هذه الصناعات أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ،

ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها مالا يستدعيه سائر الصناعات . ولذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناع .

والسياسة فى استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجى فى الدنيا والآخرة على أربع مراتب : الأولى وهى العليا : سياسة الأنبياء عليهم السلام ، وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً فى ظاهرهم وباطنهم . والثانية : الخلفاء والملوك والسلاطين ، وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً ، ولكن على ظاهرهم لا على باطنهم . والثالثة : العلماء بالله عز وجل وبدينه الذين هم ورثة الأنبياء ، وحكمهم على باطن الخاصة فقط ، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ، ولا تنتهى قوتهم إلى التصرف فى ظواهرهم بالالزام والمنع والشرع . والرابعة : الوعاظ ، وحكمهم على بواطن العوام فقط . فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة : إفادة العلم ، وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة ، وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة ، وهو المراد بالتعليم

وإنما قلنا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات ، لأن شرف الصناعة يعرف بثلاثة أمور : إما بالالتفات الى الغريزة التى بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية ، إذ تدرك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع ؛ وإما بالنظر الى عموم النفع : كفضل الزراعة على الصياغة ؛ وإما بملاحظة المحل الذى فيه التصرف: كفضل الصياغة على الدباغة ، إذ محل أحدهما الذهب ، ومحل الآخر جلد الميتة .

وليس يخفى أن العلوم الدينية وهى فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء ، والعقل أشرف صفات الانسان كما سيأتى بيانه ، إذ به تقبل أمانةُ الله ، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه

وأما عموم النفع فلا يستراب فيه، فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة

وأما شرف المحل فكيف يخفى والمعلم متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على الأرض جنس الانس ، وأشرف جزء من جواهر الانسان قلبه، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عزّ وجل

فتعليم العلم من وجهٍ عبادةٌ لله تعالى، ومن وجه خلافة لله تعالى ، وهو من أجل خلافة الله،

فان الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلمَ الذى هو أخص صفاته ، فهو كالخازن لأنفس خزائنه ، ثم هو مأذون له فى الإنفاق منه على كل محتاج اليه . فأى رتبة أجلّ من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه و بين خلقه فى تقريبهم إلى الله زلفى ، وسياقهم إلى جنة المأوى؟ جعلنا الله منهم بكرمه ! وصلى الله على كل عبد مصطفى .

الباب الثانى

فى العلم المحمود و المذموم و أقسامهما و أحكامهما ، وفيه بيان ما هو فرض عين وما هو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أى حد هو وتفضيل علم الآخرة

بيان العلم الذى هو فرض عين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم : « اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّينِ * »

واختلف الناس فى العلم الذى هو فرض على كل مسلم ، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزّل الوجوب على العلم الذى هو بصدده ، فقال : المتكلمون: هو علم الكلام ، إذ به يدرك التوحيدُ ، ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته . وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحلّ ، وعَنَوْا به ما يحتاج إليه الآحاد ، دون الوقائع النادرة . وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم : فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ، ومقامه من الله عز وجل ، وقال بعضهم : هو العلم بالاخلاص وآفات النفوس وتمييز لَمَّة الملك من لمة الشيطان . وقال بعضهم : هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك ، وصرفوا اللفظ عن عمومه . وقال أبو طالب المكى : هو العلم بما يتضمنه الحديث الذى فيه مبانى الاسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم (١) « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَاإِلَهَ إِلاَّ اللهُ » إلي آخر الحديث ، لأن الواجب هذه الخمس ، فيجب العلم بكيفية العمل فيها ، وبكيفية الوجوب .

---

(١) حديث بنى الاسلام على خمس: متفق عليه من حديث ابن عمر * راجع تخريجه فى ص ١٥

والذى ينبغي أن يقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما سنذكره ، وهو : أن العلم كما قدّمناه فى خطبة الكتاب ينقسم إلي علم معاملة وعلم مكاشفة ، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة

والمعاملة التى كلف العبد العاقل البالغ العملَ بها ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك . فاذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلا ، فأول واجب عليه تعلّم كلمتى الشهادة وفهم معناهما ، وهو قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وليس يجب عليه أن يحصّل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلّة ، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان، إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) من أجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلم دليل ، فاذا فعل ذلك فقد أدّى واجب الوقت ، وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما ، وليس يلزمه أمر وراء هذا فى الوقت ، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعا لله عز وجل غير عاص له

وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض ، وليس ذلك ضروريا فى حق كل شخص ، بل يتصوّر الانفكاك عنها ، وتلك العوارض إما أن تكون فى الفعل ، وإما فى الترك ، وإما فى الاعتقاد .

أما الفعل فبأن يعيش من ضحوة نهاره الى وقت الظهر ، فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة ، فان كان صحيحا وكان بحيث لو صبر الى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل فى الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم ، فلا يبعد أن يقال الظاهر بقاؤه ، فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت ، ويحتمل أن يقال وجوب العلم الذى هو شرط العمل بعد وجوب العمل ، فلا يجب قبل الزوال ، وهكذا في بقية الصلوات .

فان عاش الى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم ، وهو يعلم أن وقته من الصبح الى

﴿ الباب الثانى ﴾

(١) حديث اكتفى رسول الله صلي الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والاقرار من غير تعلم دليل مشهور فى كتب السير والحديث ، فعندمسلم قصة ضمام بن ثعلبة

غروب الشمس ، وأن الواجب فيه النية والامساك عن الأكل والشرب والوقاع ، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين .

فان تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه ، لزمه تعلم مايجب عليه من الزكاة ، ولكن لايلزمه فى الحال ، إنما يلزمه عندتمام الحول من وقت الاسلام ، فان لم يملك الا الابل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الابل ، وكذلك فى سائر الأصناف .

فاذا دخل فى أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة الى علم الحج ، مع أن فعله على التراخى ، فلا يكون تعلمه على الفور ، ولكن ينبغى لعلماء الاسلام أن ينبهوه على أن الحج فرض على التراخى على كل من ملك الزاد والراحلة اذا كان هو مالكا ، حتى ربما يرى الحزم لنفسه فى المبادرة ، فعند ذلك اذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ، ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله ؛ فانّ فعلَ ذلك نفل ، فعلمه أيضا نفل ، فلا يكون تعلمه فرض عين . وفى تحريم السكوت على التنبيه على وجوب أصل الحج فى الحال نظر يليق بالفقه ، وهكذا التدريج فى علم سائر الأفعال التى هى فرض عين .

وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب مايتجدد من الحال ، وذلك يختلف بحال الشخص اذ لايجب على الأبكم تعلم مايحرم من الكلام ، ولا على الأعمى تعلم مايحرم من النظر ، ولا على البدوى تعلم مايحرم الجلوس فيه من المساكن ، فذلك أيضا واجب بحسب مايقتضيه الحال ، فما يعلم أنه ينفك عنه لايجب تعلمه ، وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه ، كما لوكان عند الاسلام لابسا للحرير أو جالسا فى الغصب أو ناظرا الى غير ذى محرم ، فيجب تعريفه بذلك ، وما ليس ملابسا له ولكنه بصدد التعرض له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه ، حتى اذا كان فى بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه ، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه .

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر ، فان خطر له شك فى المعانى التى تدل عليها كلمتا الشهادة فيجب عليه تعلم مايتوصل به الي إزالة الشك ، فان لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم ، وأنه مرئي ، وأنه ليس محلا للحوادث ، الى غير ذلك مما يذكر فى المعتقدات ، فقد مات على الاسلام إجماعا . ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع ، وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلد ،

فان كان فى بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع ، فينبغى أن يصان فى أول بلوغه عنها بتلقين الحق ، فانه لو ألقى اليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه ، وربما عسر ذلك ، كما أنه لو كان هـذا المسلم تاجرا وقد شاع فى البلد معاملة الربا ، وجب عليه تعلم الحذر من الربا . وهذا هو الحق في العلم الذى هو فرض عين . ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب ؛ فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذى هو فرض عين

وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولَمَّة المَلَك حق أيضا ، ولكن فى حق من يتصدى له ، فاذا كان الغالب أن الانسان لاينفك عن دواعى الشر والرياء والحسد، فيلزمه أن يتعلم من علم ربع المهلكات مايرى نفسه محتاجا اليه ؛ وكيف لايجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (١) « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » . ولا ينفك عنها بشر . وبقيـة ماسنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبر والعجب وأخواتهما تتبع هذه الثلاث المهلكات ، وإزالتها فرض عين . ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ، ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها ، فان من لايعرف الشر يقع فيه ، والعلاج هو مقابلة السبب بضده ، وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب ؟ وأكثر ماذكرناه في ربع المهلكات من فروض الأعيـان ، وقد تركها النـاس كافة اشتغالا عما لايعنى .

ومما ينبغى أن يبادر فى إلقائه اليه اذا لم يكن قد انتقل عن ملة الي ملة أخرى : الإيمان بالجنة والنار ، والحشر والنشر ، حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من تتمة كلمتى الشهادة ، فانه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا ينبغى أن يفهم الرسالة التى هو مبلغها ، وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاهما فله النار . فاذا انتبهت لهذا التدريج علمت أن المذهب الحق هو هذا ، وتحققت أن كل عبد هو فى مجارى أحواله فى يومه وليلته لايخلو من وقائع فى عباداته ومعاملاته عن تجدّد لوازم عليه ، فيلزمه السؤال عن كل مايقع له من النوادر ، ويلزمه المبادرة الى تعلم مايتوقع وقوعه على القرب غالبا . فاذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرّف بالألف واللام فى قوله صلى الله عليه وسلم : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ »

(١) حديث ثلاث مهلكات شح مطاع ـ الحديث : البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف

علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير . فقد اتضح وجه التدريج ووقت وجوبه ، والله أعلم

بيان العلم الذى هو فرض كفاية

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلومُ بالاضافة الى الفرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى شرعية وغير شرعيـة ، وأعنى بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل اليـه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة . فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم الى ماهو محمود والى ماهو مذموم والى ماهو مباح . فالمحمود مايرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب ، وذلك ينقسم الى ماهو فرض كفاية ، والى ماهو فضيلة وليس بفريضة

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغني عنه فى قوام أمور الدنيا: كالطب، إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فانه ضرورى فى المعـاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما . وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرِج أهلُ البلد ، واذا قام بها واحد كفي وسقط الفرض عن الآخرين ، فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فان أصول الصناعات أيضا من فروض الكفايات: كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة ، فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك اليهم ، وحَرِجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك ، فان الذى أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد الى استعماله ، وأعدّ الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله

وأما مايعد فضيلة لا فريضة فالتعمق فى دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغني عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج اليه

وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات ، وعلم الشعبذة والتلبيسات

وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها ، وتواريخ الأخبار وما يجرى مجراه

وأما العلوم الشرعية وهى المقصودة بالبيان ، فهى محمودة كلها ، ولكن قد يلتبس بها ما يظن

أنها شرعية وتكون مذمومة ؛ فتنقسم الي المحمودة والمذمومة أما المحمودة فلها أصول وفروع ومقدّمات ومتمات ، وهي أربعة أضرب :

الضرب الأول : الأصول ـ وهي أربعة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه السلام ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة . والاجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة ، فهو أصل في الدرجة الثالثة ، وكذا الأثر ، فانه يدل على السنة ، لأن الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتنزيل ، وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم عيانه ، وربما لاتحيط العبارات بما أدرك بالقرائن ، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم ، وذلك بشرط مخصوص على وجه مخصوص عند من يراه ، ولا يليق بيانه بهذا الفن

الضرب الثاني : الفروع ـ وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبه لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتي فهم من اللفظ الملفوظ به غيره ، كما فهم من قوله عليه السلام :(١) « لَا يَقْضِي الْقَاضِي وَهُوَ غَضْبَانُ » أنه لا يقضى إذا كان حاقنا أو جائعا أو متألما بمرض . وهذا على ضربين : أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه ، والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا . والثاني ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمذمومة ، وما هو مرضى عند الله تعالى ، وما هو مكروه ، وهو الذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب ، أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين ، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها ، وهو الذي يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب

والضرب الثالث : المقدمات ـ وهي التي تجرى منه مجرى الآلات : كعلم اللغة والنحو ، فانهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسها ، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع ، إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب ، وكل شريعة لاتظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة . ومن الآلات علم كتابة الخط ، إلا أن ذلك ليس ضروريا ، إذ كان رسول الله صلي الله عليه وسلم (١) أميًّا . ولو تصور

---

(١) حديث لايقضي القاضى وهو غضبان : متفق عليه من حديث أبى بكرة

(٢) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً أى لايحسن الكتابة : ابن مردويه في التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا أنا محمد النبي الأمي وفيه ابن لهيعة ، ولابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهقي وصححه من حديث ابن مسعود قولوا اللهم صل على محمد النبي الأمي ، وللبخاري من حديث البراء : وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب

استقلال الحفظ بجميع مايسمع لاستغنى عن الكتابة ، ولكنه صار بحكم العجز فى الغالب ضروريا

الضرب الرابع : المتممات ـ وذلك فى علم القرءان ، فإنه ينقسم الى مايتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف ، والي مايتعلق بالمعنى كالتفسير فان اعتماده أيضا على النقل، إذ اللغة بمجردها لاتستقل به ، والى مايتعلق بأحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، والنص والظاهر ، وكيفية استعمال البعض منه مع البعض ، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ، ويتناول السنة أيضا .

وأما المتممات فى الآثار والأخبار ، فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم ، وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلمُ بالعدالة فى الرواة . والعلم بأحوالهم لتميز الضعيف عن القوى ، والعلم بأعمارهم لتميز المرسل عن المسند ، وكذلك مايتعلق به . فهذه هي العلوم الشرعية ، وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات .

فان قلت : لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا وألحقت الفقهاء بعلماء الدنيا ؟ فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب ، وأخرج ذريته من سلالة من طين ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومنها إلى الدنيا ، ثم إلى القبر ، ثم إلى العرض ، ثم إلى الجنة أو إلى النار ، فهذا مبدؤهم وهذا غايتهم ، وهذه منازلهم . وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناول منها مايصلح للتزود ، فلو تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ، ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت منها الخصومات ، فمسّت الحاجة إلى سلطان يسوسهم ، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به . فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات ، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لينتظم باستقامتهم أمورهم فى الدنيا . ولعمرى إنه متعلق أيضاً بالدين ، ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا ، فان الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان . فالدين أصل والسلطان حارس ، ومالا أصل له فمهدوم ، ومالا حارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان ، وطريق الضبط فى فصل الحكومات بالفقه

وكما أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين فى الدرجة الأولى، بل هو معين على مالا يتم الدين إلا به ، فكذلك معرفة طريق السياسة . فمعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذرقة تحرس

من العرب فى الطريق ، ولكن الحج شيء وسلوك الطريق إلى الحج شيء ثان ، والقيام بالحراسة التى لايتم الحج إلابها شيء ثالث ، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شيء رابع . وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة . ويدل على ذلك ما روى مسنداً (١) «لاَ يُفْتِي النَّاسَ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ : أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ أَوْ مُتَكَلِّفٌ» . فالأمير هو الامام وقد كانوا هم المفتين ، والمأمور نائبه ، والمتكلف غيرهما ، وهو الذى يتقلد تلك العهدة من غير حاجة . وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يحترزون عن الفتوى حتى كان يحيل كل واحد منهم على صاحبه ، وكانوا لايحترزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة . وفى بعض الروايات بدل المتكلف المرائى ، فان من تقلد خطر الفتوى وهو غير متعين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال .

فان قلت : هذا إن استقام لك فى أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ربع العبادات من الصيام والصلاة ، ولا فيما يشتمل عليه ربع العادات من المعاملات من بيان الحلال والحرام . فاعلم أن أقرب مايتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هى أعمال الآخرة ثلاثة : الاسلام ، والصلاة ، والزكاة ، والحلال والحرام . فاذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها ، علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة . وإذا عرفت هذا فى هذه الثلاثة فهو فى غيرها أظهر .

أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد ، وفى شروطه ، وليس يلتفت فيه إلا الى اللسان ، وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال : (٢) «هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ» للذى قتل من تكلم بكلمة الاسلام معتذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الاسلام تحت ظلال السيوف ؛ مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ، ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ، ولكنه مشير على صاحب السيف ، فان السيف ممتد إلى رقبته ، واليد ممتدة إلى ماله ، وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله مادامت له رقبة ومال ، وذلك فى الدنيا ، ولذلك

---

(١) حديث لايفتى الناس إلا ثلاثة ـ الحديث : ابن ماجة من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ : لايقص على الناس ، وإسناده حسن

(٢) حديث هلا شققت عن قلبه : مسلم من حديث أسامة بن زيد

قال صلى الله عليه وسلم :[١] « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » جعل أثر ذلك في الدم والمال . وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال ، بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها ؛ وليس ذلك من فن الفقه ، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض فى الكلام والطب وكان خارجا عن فنه

وأما الصلاة فالفقيه يفتى بالصحة اذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط ، وإن كان غافلا فى جميع صلاته من أولها الى آخرها ، مشغولا بالتفكر فى حساب معاملاته فى السوق إلا عند التكبير ، وهذه الصلاة لا تنفع فى الآخرة ، كما أن القول باللسان فى الاسلام لا ينفع ، ولكن الفقيه يفتي بالصحة ، أى أن مافعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير. فأما الخشوع وإحضار القلب الذى هو عمل الآخرة و به ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ، ولو تعرض له لكان خارجا عن فنه

وأما الزكاة فالفقيه ينظر الى ما يقطع به مطالبة السلطان حتي اذا امتنع عن أدائها فأخذها السلطان قهراً حكم بأنه برئت ذمته . وحكى أن أبا يوسف القاضى كان يهب ماله لزوجته آخر الحول و يستوهب مالها إسقاطا للزكاة ، فحكى ذلك لأبى حنيفة رحمه الله ، فقال : ذلك من فقهه ، وصدق فان ذلك من فقه الدنيا ؛ ولكن مضرّته فى الآخرة أعظم من كل جناية ، ومثل هذا هو العلم الضار

وأما الحلال والحرام فالورع عن الحرام من الدين ، ولكن الورع له أربع مراتب :

الأولى ـ الورع الذى يشترط فى عدالة الشهادة ، وهو الذى يخرج بتركه الانسانُ عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية ، وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر

الثانية ـ ورع الصالحين ، وهو التوقي من الشبهات التى يتقابل فيها الاحتمالات ، قال صلى الله عليه وسلم :[٢] « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ » وقال صلى الله عليه وسلم :[٣] « الْإِثْمُ حَزَّازُ الْقُلُوبِ »

---

(١) حديث أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وعمر وابن عمر

(٢) حديث دع ما يريبك إلى ما لا يريبك : الترمذي وصححه والنسائي وابن حبان من حديث الحسن بن علي

(٣) حديث الاثم حزاز القلوب : البيهقى فى شعب الايمان من حديث ابن مسعود ورواه العدني فى مسنده موقوفا عليه

الثالثة ـ ورع المتقين ، وهو ترك الحلال المحض الذى يخاف منه أداؤه الى الحرام؛ قال صلى الله عليه وسلم (١) « لَا يَكُونُ ٱلرَّجُلُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَالَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةً مِمَّا بِهِ بَأْسٌ » وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار الى الغيبة ، والتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجات النشاط والبطر المؤدى الى مقارفة المحظورات

الرابعة ـ ورع الصديقين ، وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفا من صرف ساعة من العمر الى مالا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل؛ وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضى إلى حرام

فهذه الدرجات كلها خارجة عن نظر الفقيه، إلا الدرجة الأولى، وهو ورع الشهود والقضاة وما يقدح فى العدالة ، والقيام بذلك لا ينفي الاثم فى الآخرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « لِوَابِصَةَ ٱسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ » . والفقيه لا يتكلم فى حزازات القلوب وكيفية العمل بها ، بل فيما يقدح فى العدالة فقط ، فاذاً جميع نظر الفقيه مرتبط بالدنيا التى بها صلاح طريق الآخرة ، فان تكلم فى شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل فى كلامه على سبيل التطفل ، كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام ، وكما تدخل الحكمة فى النحو والشعر. وكان سفيان الثوري وهو إمام فى علم الظاهر يقول : إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة . كيف وقد اتفقوا على أن الشرف فى العلم العمل به ، فكيف يظن أنه علم الظهار واللعان والسلم والإجارة والصرف؟ ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها الى الله تعالى فهو مجنون ، وإنما العمل بالقلب والجوارح فى الطاعات ، والشرف هو تلك الأعمال

فان قلت : لم سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد ، وذلك يتعلق به أيضاً صلاح الدين ، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين ؟ فاعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق ، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة اوجه : (أحدها) أنه علم شرعي

---

(١) حديث لا يكون الرجل من المتقين حتي يدع مالا بأس به ـ الحديث : الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عطية السعدى

(٢) حديث استفت قلبك وإن أفتوك : أحمد من حديث وابصة

إذ هو مستفاد من النبوة ، بخلاف الطب فانه ليس من علم الشرع . و(الثانى) أنه لا يستغني عنه أحد من سالكى طريق الآخرة ألبتة لا الصحيح ولا المريض؛ وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المرضى وهم الأقلون . و(الثالث) أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر فى أعمال الجوارح، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب ، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية فى الآخرة ، والمذموم يصدر من المذموم، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب. وأما الصحة والمرض فمنشؤهما صفاء فى المزاج والأخلاط ، وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب ، فمها أضيف الفقه إلي الطب ظهر شرفه ، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم طريق الآخرة

فإن قلت : فصّل لى علم طريق الآخرة تفصيلا يشير الى تراجمه وإن لم يمكن استقصاء تفاصيله ، فاعلم أنه قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة .

فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن، وذلك غاية العلوم، فقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هـذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة . وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله . وقال آخر: من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم : بدعة أو كبر . وقيل : من كان محباً للدنيا أو مصرًّا على هوى لم يتحقق به ؛ وقد يتحقق بسائر العلوم ، وأقل عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئا ؛ وينشد على قوله :

وارض لمن غاب عنك غيبته * فذاك ذنب عقابه فيه

وهو علم الصديقين والمقربين ؛ أعنى علم المكاشفة . فهو عبارة عن نور يظهر فى القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة ؛ وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معانى مجملة غير متضحة ؛ فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات ، وبأفعاله وبحكمه فى خلق الدنيا والآخرة، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ، ومعنى الوحى ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للانسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحى اليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، ومعرفة القلب ، وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمّة الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار ، وعذاب القبر ، والصراط ، والميزان والحساب ، ومعنى قوله تعالى :

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) ومعنى قوله تعالى : (وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ، ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملأ الأعلى ومقارنة الملائكة والنبيين ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء ، إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ، إذ للناس فى معانى هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذى أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنة إلا الصفات والأسماء . وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها ، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته ، وبعضهم يدعى أمورا عظيمة فى المعرفة بالله عزّ وجل . وبعضهم يقول : حدّ معرفة الله عزّ وجل ما انتهى اليه اعتقاد جميع العوام ، وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم . فنعنى بعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق فى هذه الأمور اتضاحا يجرى مجرى العيان الذى لا يشك فيه . وهذا ممكن فى جوهر الانسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا ، وإنما نعنى بعلم طريق الآخرة العلمَ بكيفية تصقيل هذه المرآة عن هذه الخبائث التى هى الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتها وتطهيرها بالكف عن الشهوات ، والاقتداء بالأنبياء صلوات الله عليهم فى جميع أحوالهم ، فبقدر ما ينجلى من القلب ويحاذى به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه ، ولا سبيل اليه إلا بالرياضة التى يأتى تفصيلها فى موضعها ، وبالعلم والتعليم . وهذه هى العلوم التى لا تسطر فى الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشىء منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيه ، على سبيل المذاكرة وبطريق الإسرار . وهذا هو العلم الخفى الذى أراده صلى الله عليه وسلم بقوله : (١) « إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ تَعَالَى ، فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَمْ يَجْهَلْهُ إِلَّا أَهْلُ الاغْتِرَارِ بِاللهِ تَعَالَى ، فَلَا تَحْقِرُوا عَالِمًا آتَاهُ اللهُ تَعَالَى عِلْمًا مِنْهُ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَحْقِرْهُ إِذْ آتَاهُ إِيَّاهُ »

---

(١) حديث من العلم كهيئة المكنون ـ الحديث : أبو عبد الرحمن السلمى فى الأربعين له فى التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف .

وأما القسم الثانى وهو علم المعاملة فهو علم أحوال القلب .

أما مايحمد منها فكالصبر والشكر ، والخوف والرجاء ، والرضا والزهد والتقوى والقناعة والسخاء ، ومعرفة المنة لله تعالى فى جميع الأحوال ، والاحسان وحسن الظن ، وحسن الخلق وحسن المعاشرة ، والصدق والاخلاص . فمعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التى بها تكتسب ، وثمرتها وعلاماتها ومعالجة ماضعف منها حتى يقوى ، وما زال حتى يعود ، من علم الآخرة

وأما مايذم نخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والغل والحقد ، والحسد والغش ، وطلب العلوّ وحب الثناء ، وحب طول البقاء فى الدنيا للتمتع ، والكبرُ والرياء ، والغضب والأنفة ، والعداوة والبغضاء ، والطمع والبخل ، والرغبة والبذَخ ، والأشر والبطر ، وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء ، والفخر والخيلاء والتنافس ، والمباهاة ، والاستكبار عن الحق والخوض فيما لايعنى ، وحب كثرة الكلام ، والصلف والتزين للخلق ، والمداهنة والعجب ، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس ، وزوال الحزن من القلب ، وخروج الخشية منه ، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل ، وضعف الانتصار للحق ، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر ، والأمن من مكر الله سبحانه فى سلب ماأعطى ، والاتكال على الطاعة ، والمكر والخيانة والمخادعة ، وطول الأمل والقسوة والفظاظة ، والفرح بالدنيا والأسف على فواتها ، والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم ، والجفاء والطيش والعجلة ، وقلة الحياء وقلة الرحمة . فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ، ومنابت الأعمال المحظورة .

وأضدادها وهى الأخلاق المحمودة منبع الطاعات والقربات ؛ فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة ، وهو فرض عين فى فتوى علماء الآخرة . فالمعرض عنها هالك بسطوة ملك الملوك فى الآخرة ؛ كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا . فنظر الفقهاء فى فروض العين ، بالاضافة الى صلاح الدنيا ؛ وهذا بالاضافة الى صلاح الآخرة . ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعانى حتى عن الاخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه ، مع أنه فرض عينه الذي فى اهماله هلاكه فى الآخرة . ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك

مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج إلى شىء منها ، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا ، وفى حفظه ودرسه ويغفل عما هو مهم نفسه فى الدين، وإذا روجع فيه قال اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ، ويلبّس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه ، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر فى فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين ، بل قدم عليه كثيرا من فروض الكفايات؛ فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ، ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع .

فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة ، وإهمال مالا قائم به ؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء ، هيهات هيهات ! قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء ، فالله تعالى المستعان ، واليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ، ويضحك الشيطان !

وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب ، كان الامام الشافعى رضى الله عنه يجلس بين يدى شيبان الراعى كما يقعد الصبى فى المكتب ويسأله كيف يفعل كذا وكذا ؛ فيقال له : مثلك يسأل هذا البدوى؟ فيقول : إن هذا وفق لما أغفلناه . وكان أحمد بن حنبل رضى الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخى ولم يكن فى علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه . وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] لما قيل له : كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده فى كتاب ولا سنة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « سَلُوا الصَّالِحِينَ وَاجْعَلُوهُ شُورَى بَيْنَهُمْ » . ولذلك قيل : علماء الظاهر زينة الأرض والملك؛ وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت . وقال الجنيد رحمه الله: قال لى السرى شيخى يوما : اذا قمت من عندى فمن تجالس ؟ قلت المحاسبي فقال : نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه الكلام وردّه على المتكلمين ، ثم لما

---

(١) حديث قيل له كيف نفعل اذا جاء أمر لم نجده فى كتاب الله ولا سنة رسوله ـ الحديث : الطبرانى من حديث ابن عباس فيه عبد الله بن كيسان ضعفه الجمهور

وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفيا ، ولا جعلك صوفيا صاحب حديث .
أشار إلى أن من حصّل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه .

فان قلت : فلم لم تورد فى أقسام العلوم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو محمودان ؟ فاعلم أن حاصل مايشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التى ينتفع بها فالقرءان والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهى من البدع كما سيأتى بيانه، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها تُرّهات وهذيانات تزدريها الطباع، وتمجها الأسماع ، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفا فى العصر الأول ، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدع الصارفة عن مقتضى القرءان والسنة ، ونبغت جماعة لفقوا لها شبها ورتبوا فيها كلاما مؤلفا ، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذونا فيه ، بل صار من فروض الكفايات ، وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة ، وذلك إلى حد محدود سنذكره فى الباب الذى يلى هذا ، إن شاء الله تعالى .

وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هى أربعة آجزاء :

(أحدها) الهندسة والحساب وهما مباحان كما سبق، ولا يُمنع عنهما إلا من يُخاف عليه أن يتجاوز بهما إلى علوم مذمومة، فان أكثر الممارسين لهما قد خرجوا منهما إلى البدع ، فيصان الضعيف عنهما لا لعينهما، كما يصان الصبي عن شاطيء النهر خيفة عليه من الوقوع فى النهر ، وكما يصان حديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار خوفا عليه، مع أن القوى لا يندب إلى مخالطتهم .

(الثانى) المنطق، وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه، ووجه الحد وشروطه، وهما داخلان فى علم الكلام

و(الثالث) الإلهيات ، وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وهو داخل فى الكلام أيضاً . والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة . وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين ، وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ، فكذلك الفلاسفة

و(الرابع) الطبيعيات، وبعضها مخالف للشرع والدين الحق، فهو جهل وليس بعلم حتى يورَد

فى أقسام العلوم ، وبعضها بحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبيه بنظر الأطباء ، إلا أن الطبيب ينظر فى بدن الانسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون فى جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك . ولكن للطب فضل عليه وهو أنه محتاج اليه ، وأما علومهم فى الطبيعيات فلا حاجة اليها . فاذاً الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخيلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بحدوث البدع ، كما حدثت حاجة الانسان إلى استئجار البذرقة فى طريق الحج بحدوث ظلم العرب وقطعهم الطريق ، ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج ، فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما افتقر الى الزيادة على ماعهد فى عصر الصحابة رضى الله عنهم . .

فليعلم المتكلم حده من الدين ، وأن موقعه منه موقع الحارس فى طريق الحج ، فاذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج ، والمتكلم اذا تجرد للمناظرة والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ، ولم يشتغل بتعهد القلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلا ، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التى يشاركه فيها سائر العوام ، وهى من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان ، وإنما يتميز عن العامي بصنعة المجادلة والحراسة ، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا اليه فى علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام ، بل يكاد أن يكون الكلام حجابا عليه ومانعا عنه ، وإنما الوصول اليه بالمجاهدة التى جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

فان قلت : فقد رددت حد المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ، كما أن حد البذرقة حراسة أقمشة الحجيج عن نهب العرب ، ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذى به يكف السلطان شر بعض أهل العدوان عن بعض ، وهاتان رتبتان نازلتان بالاضافة إلى علم الدين ، وعلماء الأمة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمون ، وهم أفضل الخلق عند الله تعالى ، فكيف تنزل درجاتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالاضافة إلى علم الدين ؟

فاعلم أن من عرف الحق بالرجال ، حار فى متاهات الضلال ، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكا طريق الحق ، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين

الناسَ فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم ، فقد أجمع الذين عرّضت بذكرهم على تقدمهم ، وأنهم لايدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ، ولم يكن تقدّمهم بالكلام والفقه ، بل بعلم الآخرة وسلوك طريقها . وما فَضَل أبو بكر[١] رضى الله عنه الناسَ بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ولكن بشيء وقر فى صدره ، كما شهد له سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . فليكن حرصك فى طلب ذلك السرّ ، فهو الجوهر النفيس والدرّ المكنون ، ودع عنك ماتطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضى الله عنهم كلهم علماء بالله أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام ، ولا نصب نفسه للفتيا منهم أحد ، إلا بضعة عشر رجلا . ولقد كان ابن عمر رضي الله عنهما منهم ، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول للسائل : اذهب إلى فلان الأمير الذى تقلد أمور الناس وضعْها فى عنقه . إشارة الى أن الفتيا فى القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة . ولما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له : أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والأحكام إنما أريد العلم بالله تعالى ؛ أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل ؟ فما بالك لاتحرص على معرفة ذلك العلم الذي مات بموت عمر تسعة أعشاره ؟ وهو الذى سد باب الكلام والجدل ، وضرب صَبيغا بالدرّة لما أورد عليه سؤالا فى تعارض آيتين فى كتاب الله ، وهجره وأمر الناس بهجره .

وأما قولك : إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون ، فاعلم أن ما يُنال به الفضل عند الله شيء ، وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر ، فلقد كان شهرة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة ، وكان فضله بالسر الذى وقر فى قلبه . وكان شهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة ، وكان فضله بالعلم بالله الذى مات تسعة أعشاره بموته ؛ وبقصده التقرّب إلى الله عز وجل فى ولايته ، وعدله وشفقته على خلقه ، وهو أمر باطن فى سره . فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والاسم والسمعة والراغب فى الشهرة ، فتكون الشهرة فيما هو المهلك ، والفضل فيما هو سرّ لايطلع عليه أحد . فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء ،

(١) حديث مافضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام ـ الحديث : الترمذى الحكيم فى النوادر من قول أبى بكر بن عبد الله المزنى ولم أجده مرفوعا

وقد انقسموا : فنهم من أراد الله سبحانه بعلمه وفتواه وذبه عن سنة نبيه ، ولم يطلب به رياء ولا سمعة ، فأولئك أهل رضوان الله تعالى ، وفضلهم عند الله لعملهم بعلمهم ، ولإرادتهم وجه الله سبحانه بفتواهم ونظرهم ، فان كل علم عمل ، فانه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علما ، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثابا على علمه من حيث إنه عامل لله سبحانه وتعالى به ، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضيا عند الله سبحانه ومثابا ، لا من حيث إنه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متقلد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عزّ وجل بعلمه

وأقسام مايتقرب به الى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم المكاشفة، وعمل مجرد وهو كعدل السلطان مثلا وضبطه للناس ، ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة ، فانّ صاحبه من العلماء والعمال جميعا . فانظر إلى نفسك أتكون يوم القيامة فى حزب علماء الله ، أو عمال الله تعالى ، أو فى حزبيهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما ؛ فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل :

خذ ماتراه ودع شيئا سمعت به * فى طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

على أنا سننقل من سيرة فقهاء السلف ماتعلم به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلموهم ، وأنهم من أشدّ خصمائهم يوم القيامة ، فانهم ماقصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى ؛ وقد شوهد من أحوالهم ماهو من علامات علماء الآخرة كما سيأتى بيانه فى باب علامات علماء الآخرة ، فانهم ما كانوا متجرّدين لعلم الفقه ، بل كانوا مشتغلين بعلم القلوب ومراقبين لها ، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ماصرف الصحابة عن التصنيف والتدريس فى الفقه مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى ، والصوارف والدواعى متيقنة ، ولا حاجة الى ذكرها

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الاسلام ماتعلم به أن ماذكرناه ليس طعنا فيهم ، بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم فى أعمالهم وسيرهم .

فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق ، أعنى الذين كثر أتباعهم فى المذاهب ، خمسة : الشافعى ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وأبو حنيفة ، وسفيان الثورى رحمهم الله تعالى . وكل واحد منهم كان عابدا ، وزاهدا ، وعالما بعلوم الآخرة ، وفقيها فى مصالح الخلق فى الدنيا ، ومريدا بفقهه وجه الله تعالى . فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر من جملتها على خصلة واحدة ، وهى التشمير والمبالغة

في تفاريع الفقه ، لأن الخصال الأربع لاتصلح إلا للآخرة ، وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة ، إن أريد بها الآخرة قلّ صلاحها للدنيا، شمروا لها وادّعوا بها مشابهة أولئك الأئمة ، وهيهات أن تقاس الملائكة بالحدّادين

فلنورد الآن من أحوالهم مايدل على هذه الخصال الأربع ، فان معرفتهم بالفقه ظاهرة :

أما الامام الشافعي رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عابدا ماروى أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء : ثلثًا للعلم ، وثلثا للعبادة ، وثلثا للنوم . قال الربيع :كان الشافعي رحمه الله يختم القرءان في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وكان البويطي أحد أصحابه يختم القرءان في رمضان في كل يوم مرة . وقال الحسن الكرابيسي : بتُّ مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحوا من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية ، فاذا أكثر فمائة آية ، وكان لايمرّ بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين ، ولا يمرّ بآية عذاب إلا تعوّذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين ؛ وكأنما جمع له الرجاء والخوف معا . فانظر كيف يدل اقتصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرءان وتدبره فيها . وقال الشافعي رحمه الله: ماشبعت منذ ست عشرة سنة ، لأن الشبع يثقل البدن ، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة . فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشبع ، ثم في جدّه في العبادة إذ طرح الشبع لأجلها ، ورأس التعبد تقليل الطعام . وقال الشافعي رحمه الله : ماحلفت بالله تعالى لاصادقا ولا كاذبا قط . فانظر إلى حرمته وتوقيره لله تعالى ، ودلالة ذلك على علمه بجلال الله سبحانه

وسئل الشافعي رضي الله عنه عن مسألة فسكت ، فقيل له : ألا تجيب رحمك الله ! فقال : حتى أدري الفضل في سكوتي أوفي جوابي . فانظر في مراقبتـه للسانه مع أنه أشدّ الأعضاء تسلطا على الفقهاء، وأعصاها عن الضبط والقهر . وبه يستبين أنه كان لايتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب . وقال أحمد بن يحي بن الوزير : خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوما من سوق القناديل فتبعناه فاذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم ، فالتفت الشافعي الينا وقال : نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به ، فان المستمع شريك القائل، وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ، ولو ردّت كلمة السفيه لسعد رادّها كما شقي بها قائلها . وقال الشافعي رضي الله عنـه : كتب حكيم إلى حكيم : قد

أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم

وأما زهده رضى الله عنه فقد قال الشافعى رحمه الله : من ادّعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها فى قلبه فقد كذب . وقال الحميدى : خرج الشافعى رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم ، فضرب له خباء فى موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه ، فما برح من موضعه ذلك حتى فرّقها كلها . وخرج من الحمام مرة فأعطى الحمامى مالا كثيرا . وسقط سوطه من يده مرة فرفعه إنسان اليه فأعطاه جزاء عليه خمسين دينارا . وسخاوة الشافعى رحمه الله أشهر من أن تحكى، ورأس الزهد السخاء ، لأن من أحبّ شيئا أمسكه ولم يفارقه ، فلا يفارق المال إلا من صغرت الدنيا فى عينه ، وهو معنى الزهد .

ويدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغال همته بالآخرة ماروى أنه رَوى سفيان بن عيينة حديثا فى الرقائق فغشى على الشافعى ، فقيل له : قد مات . فقال : إن مات فقد مات أفضل زمانه . وما رَوى عبد الله بن محمد البلوى قال : كنت أنا وعمر بن نباتة جلوسا نتذاكر العبّاد والزهاد ، فقال لى عمر : مارأيت أورع ولا أفصح من محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه : خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد إلى الصفا ، وكان الحارث تلميذا لصالح المرى فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت ، فقرأ هذه الآية : (هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) فرأيت الشافعى رحمه الله وقد تغير لونه ، واقشعر جلده ، واضطرب اضطرابا شديدا ، وخرّ مغشيا عليه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين ، وإعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب العارفين ، وذلت لك رقاب المشتاقين، إلهى هب لى جودك وجَلّلنى بسترك ، واعف عن تقصيرى بكرم وجهك ! قال ثم مشى وانصرفنا ، فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتوضأ للصلاة إذ مر بى رجل فقال لى : ياغلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك فى الدنيا والآخرة . فالتفتّ فاذا أنا برجل يتبعه جماعة فأسرعت فى وضوئى وجعلت أقفو أثره ، فالتفت إلىّ فقال : هل لك من حاجة ؟ فقلت : نعم تعلمنى مما علمك الله شيئا . فقال لي : اعلم أن من صَدَق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد فى الدنيا قرّت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا، أفلا أزيدك ؟ قلت نعم . قال: من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان : من أمر بالمعروف وائتمر ، ونهى عن المنكر وانتهى، وحافظ

على حدود الله تعالى . ألا أزيدك ؟ قلت : بلى . فقال : كن فى الدنيا زاهدا وفى الآخرة راغبا ، واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين . ثم مضى ، فسألت من هذا ؟ فقالوا : هو الشافعى . فانظر إلى سقوطه مغشيا عليه ، ثم إلى وعظه ، كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه ؛ ولايحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل ، فانه (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ) . ولم يستفد الشافعى رحمه‌الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السَّلَم والاجارة وسائر كتب الفقه ؛ بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرءان والأخبار ؛ إذ حكم الأولين والآخرين مودعة فيهما .

وأما كونه عالما بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه : روى أنه سئل عن الرياء فقال على البديهة : الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا اليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم . وقال الشافعى رحمه الله تعالى : إذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب ، وفى أى ثواب ترغب ، ومن أى عقاب ترهب ، وأى عافية تشكر ، وأى بلاء تذكر ، فانك إذا تفكرت فى واحدة من هذه الخصال صغر فى عينك عملك . فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب . وقال الشافعى رضى الله عنه : من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه . وقال رحمه الله : من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سرّه . وقال : ما من أحد إلا له محب ومبغض ، فاذا كان كذلك فكن مع أهل طاعة الله عز وجل . وروى أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا ورعا ، وكان يسأل الشافعى رضى‌الله عنه عن مسائل فى الورع ، والشافعى رحمه الله يُقبل عليه لورعه

وقال للشافعى يوما : أيها أفضل : الصبر ، أو المحنة ، أو التمكين ؟ فقال الشافعى رحمه الله : التمكين درجة الأنبياء ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة ، فاذا امتحن صبر ، وإذا صبر مكن ، ألا تري أن الله عز وجل امتحن ابراهيم عليه السلام ثم مكّنه ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكّنه ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا ؟ والتمكين أفضل الدرجات ، قال الله عز وجل : (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ) وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكّن ، قال الله تعالي : (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ) الآية ، فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره فى أسرار القرآن ، واطلاعه على مقامات

السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء ، وكل ذلك من علوم الآخرة

وقيل للشافعى رحمه الله : متى يكون الرجل عالما ؟ قال : إذا تحقق فى علم فعلمه وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته ، فعند ذلك يكون عالما ، فانه قيل لجالينوس : إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجمعة ، فقال : إنما المقصود منها واحد ، وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدّته لأن الإفراد قاتل . فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علوّ رتبته فى معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة .

وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجهَ الله تعالى ، فيدل عليه ماروى عنه انه قال : وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلىّ شيء منه . فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له ، وكيف كان منزّه القلب عن الالتفات اليه ، بمجرد النية فيه لوجه الله تعالى ! وقال الشافعى رضى الله عنه : ماناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطىء . وقال : ما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدّد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ ، وما كلمت أحدا قط وأنا أبالى أن يبين الله الحق على لسانى أو على لسانه . وقال : ماأوردت الحق والحجة على أحد فقبلها منى إلا هبته واعتقدت محبته ، ولا كابرنى أحد على الحق ودافع الحجة إلا سقط من عينى ورفضته . فهذه العلامات هي التى تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة . فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط ، ثم كيف خالفوه فيها أيضا ! ولهذا قال أبو ثور رحمه الله : مارأيت ولا رأى الراءون مثل الشافعى رحمه الله تعالى .

وقال أحمد بن حنبل رضى الله عنه : ماصليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعى رحمه الله تعالى . فانظر إلى إنصاف الداعى ، وإلى درجة المدعوّ له ، وقس به الأقران والأمثال من العلماء فى هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم تقصيرهم فى دعوى الاقتداء بهؤلاء . ولكثرة دعائه له قال له ابنه : أى رجل كان الشافعى حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟ فقال احمد : يا بنى كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس . فانظر هل لهذين من خلف ؟ وكان أحمد رحمه الله يقول : مامس أحد بيده محبرة إلا وللشافعى رحمه الله فى عنقه منة . وقال يحيى بن سعيد القطان : ماصليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعى لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ، ووفقه للسداد فيه .

ولنقتصر على هذه النبذة من أحواله ، فان ذلك خارج عن الحصر . وأكثرهذه المناقب نقلناه من الكتاب الذى صنفه الشيخ نصر بن ابراهيم المقدسى رحمه الله تعالى فى مناقب الشافعى رضى الله عنه وعن جميع المسلمين .

وأما الامام مالك رضى الله عنه فإنه كان أيضاً متحليا بهذه الخصال الخمس، فإنه قيل له: ماتقول يامالك فى طلب العلم ؟ فقال : حسن جميل ولكن انظر إلى الذى يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فالزمه . وكان رحمه الله تعالى فى تعظيم علم الدين مبالغا، حتى كان اذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث . فقيل له في ذلك ، فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مالك : العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية . وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى .

وأما إرادته وجه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : « الجدال فى الدين ليس بشىء » . ويدل عليه قول الشافعى رحمه الله : إنى شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال فى اثنتين وثلاثين منها : لاأدرى . ومن يرد غير وجه الله تعالي بعلمه فلا تسمح نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لايدرى . ولذلك قال الشافعي رضى الله عنه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب، وما أحد أمن علي من مالك . وروى أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث فى طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله، فروى على ملأ من الناس : « ليس على مستكره طلاق » فضربه بالسياط ، ولم يترك رواية الحديث . وقال مالك رحمه الله : ما كان رجل صادقا فى حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف .

وأما زهده فى الدنيا فيدل عليه ماروى أن المهدى أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال لا ولكن أحدثك : سمعت ربيعة بن أبى عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره . وسأله الرشيد : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال اشتر بها دارا ، فأخذها ولم ينفقها ، فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك رحمه الله : ينبغى أن تخرج معنا فانى عزمت على أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضى الله عنه الناس على القرءان ، فقال له : أما حمل الناس على الموطأ فليس اليه سبيل لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم

« اخْتِلاَفُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ » (١): وأما الخروج معك فلا سبيل اليه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (٢) « الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » وقال عليه الصلاة والسلام: (٣) « الْمَدِينَةُ تَنْفِي خَبَثَهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ » وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها . يعني أنك إنما تكلفني مفارقة المدينة لما اصطنعته إليّ ، فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهكذا كان زهد مالك في الدنيا . ولما حملت اليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ، ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا ، وليس الزهد فقد المال ، وإنما الزهد فراغ القلب عنه . ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد . ويدل على احتقاره للدنيا ماروى عن الشافعي رحمه الله أنه قال : رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان ويقال مصر مارأيت أحسن منه، فقلت لمالك رحمه الله : ماأحسنه ! فقال: هو هدية مني اليك ياأباعبدالله ، فقلت دع لنفسك منها دابة تركبها ، فقال إني أستحيي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة . فانظر إلى سخائه إذوهب جميع ذلك دفعة واحدة ، وإلى توقيره لتربة المدينة

ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاره للدنيا ماروى عنه أنه قال : دخلت على هرون الرشيد فقال لي : ياأبا عبدالله ينبغي أن تختلف الينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ . قال فقلت: أعز الله مولانا الأمير: إن هذا العلم منكم خرج ، فان أنتم أعززتموه عزّ ، وإن أنتم أذللتموه ذلّ، والعلم يؤتى ولا يأتي . فقال صدقت ، اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى لقد كان أيضا عابدا ، زاهدا ، عارفا بالله تعالى ، خائفا منه، مريدا وجه الله تعالى بعلمه

فأما كونه عابدا فيعرف بما روى عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله له مروءة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيي الليل كله . وروى أنه كان يحيي نصف الليل فمر يوما في طريق فأشار اليه إنسان وهو يمشي ، فقال لآخر : هذا هو الذي يحيي الليل

---

(١) حديث اختلاف أمتي رحمة : ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقا وأسنده في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ اختلاف أصحابي لكم رحمة ، وإسناده ضعيف

(٢) حديث المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون : متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير

(٣) حديث المدينة تنفي خبثها ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

كله ، فلم يزل بعدذلك يحيي الليل كله ؛ وقال أنا أستحى من الله سبحانه أن أوصف بما ليس فيّ من عبادته

وأما زهـده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال : أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه ، فأراده أن يكون حاكما على بيت المال فأبى . فضربه عشرين سوطا . فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب . قال الحكم بن هشام الثقفي : حدثت بالشام حديثاً في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة ، وأراده السلطان على أن يتولى مفاتيح خزائنه أو يضرب ظهره فاختار عذابهم له على عذاب الله تعالى . وروى أنه ذُكر أبو حنيفة عند ابن المبارك فقال : أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففرّ منها ! وروى عن محمد بن شجاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة : قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم ، قال : فما رضى أبو حنيفة ، قال: فلما كان اليوم الذى توقع أن يؤتي بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشي بثوبه فلم يتكلم ، فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه ، فقال بعض من حضر : مايكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة ، أى هذه عادته ، فقال ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت ، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته ؛ وقال لابنه : إذا مت ودفنتموني فخذ هذه البدرة واذهب بها إلى الحسن بن قحطبة فقل له : خذ وديعتك التى أودعتها أبا حنيفة . قال ابنه : ففعلت ذلك ، فقال الحسن : رحمة الله على أبيك فلقد كان شحيحا على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال: أنا لا أصلح لهذا ، فقيل له : لم ؟ فقال: إن كنت صادقا فما أصلح لها ، وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء .

وأما علمـه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عزّ وجل ، فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده فى الدنيا . وقد قال ابن جريج : قد بلغني عن كوفيّكم هذا النعمان ابن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعي :كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر ، قليل المحادثة للناس . فهذا من أوضح الأمارات على العلم الباطني ، والاشتغال بمهمات الدين ، فمن أوتى الصمت والزهد فقد أوتى العلم كله . فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة

وأما الامام أحمد بن حنبل وسفيان الثورى رحمهما الله تعالى فأتباعهما أقلّ من أتباع هؤلاء ، وسفيـان أقلّ أتباعا من أحمد ، ولكن اشتهارهمـا بالورع والزهد أظهر . وجميع هذا الكتاب

مشحون بحكايات أفعالهما وأقوالهما، فلا حاجة إلى التفصيل الآن، فانظر الآن فى سير هؤلاء الأئمة الثلاثة . وتأمَّل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال فى الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يثمرها مجرد العلم بفروع الفقه، من معرفة السلم والإجارة والظهار والإيلاء واللعان، أو يثمرها علم آخر أعلى وأشرف منه ؟ وانظر إلى الذين ادّعوا الاقتداء بهؤلاء أصدقوا فى دعواهم أم لا ؟

الباب الثالث

فيما يعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها ، وفيه بيان الوجه الذى قد يكون بين بعض العلوم مذموماً ، وبيان تبديل أسامى العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة ، وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها

بيان علة ذم العلم المذموم

لعلك تقول : العلم هو معرفة الشىء على ماهو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشىء علما ويكون مع كونه علما مذموما ؟ فاعلم أن العلم لايذم لعينه وإنما يذم فى حق العباد لأحد أسباب ثلاثة :

الأول ـ أن يكون مؤدّيا إلى ضرر مّا إما لصاحبه أو لغيره كما يذم علم السحر والطلسمات، وهو حقّ، إذ شهد القرءان له، وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين . وقد «سُحِر[1] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك، وأُخرج السحرُ من تحت حَجَر فى قعر بئر» وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية فى مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور، ويرصد

﴿ الباب الثالث ﴾

(١) حديث سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم : متفق عليه من حديث عائشة

به وقت مخصوص من المطالع ، وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع ، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ، ويحصل من مجموع ذلك ، بحكم إجراء الله تعالى العادة ، أحوال غريبة في الشخص المسحور . ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنها معرفة ليست بمذمومة ، ولكنها ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق ، والوسيلة إلى الشرّ شرّ ، فكان ذلك هو السبب في كونه علما مذموما ، بل من اتبع وليا من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه في موضع حريز إذا سأل الظالم عن محله لم يجز تنبيهه عليه ، بل وجب الكذب فيه ، وذكر موضعه إرشاد وإفادةُ علم بالشيء على ماهو عليه ، ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر

الثاني ـ أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر كعلم النجوم ، فانه في نفسه غير مذموم لذاته ، إذ هو قسمان : قسم حسابي ، وقد نطق القرءان بأن مسير الشمس والقمر محسوب ، إذ قال عزّ وجل: (ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) وقال عزّ وجل : (وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ) . والثاني الأحكام ، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب ، وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ماسيحدث من المرض ، وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى وعادته في خلقه ، ولكن قد ذمّه الشرع ، قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا ذُكِرَ ٱلْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَتِ ٱلنُّجُومُ فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا» . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] «أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي ثَلَاثًا : حَيْفُ ٱلْأَئِمَّةِ ، وَٱلْإِيمَانُ بِٱلنُّجُومِ ، وَٱلتَّكْذِيبُ بِٱلْقَدَرِ » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تعلموا من النجوم ماتهتدون به في البرّ والبحر ثم أمسكوا . وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه : (أحدها) أنه مضر بأكثر الخلق ، فانه إذا ألقي اليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة ، وأنها الآلهة المدبرة ، لأنها جواهر شريفة سماوية ، ويعظم وقعها في القلوب ، فيبقى القلب ملتفتا اليها ، ويرى الخير والشرّ محذورا أو مرجوّا من جهتها ، وينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب . فان الضعيف يقصر نظره على الوسائط ، والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى . ومثال نظر الضعيف الى

---

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا ـ الحديث : رواه الطبراني من حديث ابن مسعود باسناد حسن

(٢) حديث أخاف على أمتي بعدي ثلاثا حيف الأئمة ـ الحديث : ابن عبد البر من حديث أبي محجن باسناد ضعيف

حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس مثال النملة لو خلق لها عقل وكانت على سطح قرطاس وهى تنظر إلى سواد الخط يتجدد ،فتعتقد أنه فعل القلم ولا تترقى فى نظرها إلى مشاهدة الأصابع ، ثم منها إلى اليد ، ثم منها إلى الارادة المحركة لليد ، ثم منها إلى الكاتب القادر المريد ، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة ، فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة، مقطوع من الترقي إلى مسبب الأسباب . فهذا أحد أسباب النهى عن النجوم . و (ثانيها) أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك فى حق آحاد الأشخاص لا يقينا ولا ظنا ، فالحكم به حكم بجهل ، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهل لا من حيث إنه علم ، فلقد كان ذلك معجزة لأدريس عليه السلام فيما يحكى ، وقد اندرس وانمحى ذلك العلم وانمحق ، وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق، لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيبها إلا بعد شروط كثيرة ليس فى قدرة البشر الاطلاع على حقائقها ،فان اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة ، وإن لم يقدر أخطأ ، ويكون ذلك كتخمين الانسان فى أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك ، وربما يحمى النهار بالشمس ويذهب الغيم ، وربما يكون بخلافه ، ومجرد الغيم ليس كافيا فى مجيء المطر ، وبقية الأسباب لا تدرى، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتمادا على ما ألفه من العادة فى الرياح ، ولتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها ، فتارة يصيب فى تخمينه وتارة يخطىء ، ولهذه العلة يمنع القوى عن النجوم أيضا . و (ثالثها) أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض فى فضول لا يغنى، وتضييع العمر الذى هو أنفس بضاعة الانسان فى غير فائدة ، وذلك غاية الخسران ، فقد « مر (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال : ماهذا ؟ فقالوا : رجل علامة، فقال بماذا ؟ قالوا بالشعر وأنساب العرب ، فقال : عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجَهْلٌ لَا يَضُرُّ » . وقال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّمَا الْعِلْمُ آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ » . فاذاً الخوض فى النجوم وما يشبهه اقتحام خطر ، وخوض فى جهالة من غير فائدة ، فان ما قدر كائن والاحتراز منه غير ممكن ، بخلاف الطب فان الحاجة ماسة اليه ، وأكثر أدلته مما يطلع عليه ،

---

(١) حديث مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال ماهذا فقالوا رجل علامة ـ الحديث: ابن عبد البر من حديث أبى هريرة وضعفه وفى آخر الحديث « إنما العلم آية محكمة » الى آخره ، وهذه القطعة عند أبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو ،

وبخلاف التعبير وإن كان تخمينا لأنه جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ولا خطر فيه

السبب الثالث ـ الخوض فى علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم ، فهو مذموم فى حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها ، وخفيها قبل جليها، وكالبحث عن الأسرار الإلهية ، إذ تطلع الفلاسفة والمتكلمون اليها ولم يستقلوا بها ، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء ، فيجب كف الناس عن البحث عنها ، وردهم إلى مانطق به الشرع ، ففى ذلك مقنع للموفق ، فكم من شخص خاض فى العلوم واستضرّ بها ، ولو لم يخض فيها لكان حاله أحسن فى الدين مما صار اليه . ولا ينكر كون العلم ضارا لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبي الرضيع ، بل رب شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور ، فلقد حكي أن بعض الناس شكا إلى طبيب عقم امرأته وأنها لاتلد فجس الطبيب نبضها وقال : لا حاجة لكِ إلى دواء الولادة فإنك ستموتين إلى أربعين يوما وقد دل النبض عليـه ، فاستشعرت المرأة الخوف العظيم وتنغص عليها عيشها ؛ وأخرجت أموالها وفرقتها ؛ وأوصت ، وبقيت لاتأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة ؛ فلم تمت ، فجاء زوجها إلى الطبيب وقال له لم تمت ؛ فقال الطبيب : قد علمت ذلك فجامعْها الآن فانها تلد . فقال : كيف ذاك ؟ قال رأيتها سمينة وقد انعقد الشحم على فم رحمها فعلمت أنهـا لاتهزل إلا بخوف الموت ؛ فخوفتها بذلك حتى هزلت وزال المـانع من الولادة . فهذا ينبهك على استشعار خطر بعض العـلوم . ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (١) « نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » . فاعتبر بهـذه الحكاية ولا تكن بحاثا عن علوم ذمها الشرع وزجر عنها ، ولازم الاقتداء بالصحابة رضى الله عنهم ، واقتصر على اتباع السنة ، فالسلامة فى الاتباع ، والخطر فى البحث عن الأشيـاء والاستقلال ، ولا تـكثر اللجج برأيك ومعقولك، ودليلك وبرهانك ، وزعمك أنى أبحث عن الأشيـاء لأعرفها على ماهى عليه ، فأى ضرر فى التفكر فى العلم، فان ما يعود عليك من ضرره أكثر ، وكم من شىء تطلّع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يـكاد يهلكك فى الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته

واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحـاذق على أسرار فى المعالجات يستبعدهـا من لا يعرفهـا ، فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الأخروية ، فلا تتحكم على سنتهم بمعقولك

(١) حديث نعوذ بالله من علم لاينفع : ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن وهو عند ابن ماجه بلفظ تعوذوا . وقد تقدم .

فتهلك ، فكم من شخص يصيبه عارض فى أصبعه فيقتضى عقله أن يطليه حتى ينبهه الطبيب الحاذق أن علاجه أن يطلى الكف من الجانب الآخر من البدن ، فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التفافها على البدن ، فهكذا الأمر فى طريق الآخرة ، وفى دقائق سنن الشرع وآدابه . وفى عقائده التى تعبّد الناس بها أسرار ولطائف ليست فى سعة العقل وقوته الإحاطة بها ، كما أن فى خواص الأحجار أموراً عجائبَ غاب عن أهل الصنعة عامها ، حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذى به يجذب المغناطيس الحديد . فالعجائب والغرائب فى العقائد والأعمال وإفادتها لصفاء القلوب ونقائها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله ، أكثر وأعظم مما فى الأدوية والعقاقير . وكما أن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل اليها فالعقول تقصر عن إدراك ماينفع فى حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرقة اليها ، وإنما كانت التجربة تتطرق اليها لو رجع الينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلفى ، وعن الأعمال المبعدة عنه ، وكذا عن العقائد ، وذلك مما لا يطمع فيه ، فيكفيك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، ويفهمك موارد إشاراته ، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ، ولازم الاتباع فلا تسلم إلا به والسلام ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ مِنَ الْعِلْمِ جَهْلًا ، وَإِنَّ مِنَ الْقَوْلِ عِيًّا » ومعلوم أن العلم لا يكون جهلا ولكنه يؤثر تأثير الجهل فى الإضرار . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم[2] « قَلِيلٌ مِنَ التَّوْفِيقِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعِلْمِ » وقال عيسى عليه السلام : « ما أكثر الشجر وليس كلها بثمر ، وما أكثر الثمر وليس كلها بطيب ، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع !

بيان مابدل من ألفاظ العلوم

اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامى المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ماأراده السلف الصالح والقرن الأوّل ، وهى خمسة

---

(١) حديث إن من العلم جهلا ـ الحديث : أبو داود من حديث بريدة وفى اسناده من يجهل

(٢) حديث قليل من التوفيق خير من كثير من العلم ـ لم أجد له أصلا وقد ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء وقال : العقل ، بدل العلم ، ولم يخرجه ولده فى مسنده

ألفاظ: الفقه، و العلم،والتوحيد، والتذكير والحكمة، فهذه أسام محمودة ، والمتصفون بها أرباب المناصب فى الدين ، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة ، فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامى عليهم .

اللفظ الأول : الفقه ـ فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لابالنقل والتحويل ، إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى ، والوقوف على دقائق عللها ، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه . ولقد كان اسم الفقه فى العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة،ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب . ويدلك عليه قوله عز وجل : (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) . وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والاجارة ، فذلك لايحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له .وقال تعالى : (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) وأراد به معانى الايمان دون الفتاوى . ولعمرى إن الفقه والفهم فى اللغة اسمان بمعنى واحد ، وإنما يتكلم فى عادة الاستعمال به قديما وحديثا، قال تعالى: (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ) الآية ، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه . فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى ، أو هو نتيجة عدم ماذكرناه من العلوم ، وقال صلى الله عليه وسلم[1] « عُلَمَاءُ حُكَمَاءُ فُقَهَاءُ » للذين وفدوا عليه. وسئل سعد بن ابراهيم الزهرى رحمه الله: أىّ أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أتقاهم لله تعالى ، فكأنه أشار إلى ثمرة الفقه ، والتقوى ثمرة العلم الباطنى دون الفتاوى والأقضية .وقال صلى الله عليه وسلم :[2] « أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِالْفَقِيهِ كُلِّ الْفَقِيهِ ؟ قالوا بلى، قَالَ : مَنْ لَمْ يُقْنِطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَلَمْ يَدَعِ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى مَاسِوَاهُ » ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه

(١) حديث علماء حكماء فقهاء : أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الزهد والخطيب فى التاريخ من حديث سويد بن الحارث باسناد ضعيف

(٢) حديث ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ـ الحديث : أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق وأبو بكر بن السنى وابن عبد البر من حديث على وقال ابن عبد البر أكثرهم يوقفونه عن على

وسلم :(١) (لَأَن أَقْعُدَ مع قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللهَ تعالَى مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتِقَ أَرْبَعَ رِقَابٍ) قال فالتفت إلى زيد الرقاشي وزياد النميري وقال: لم تكن مجالسُ الذكر مثلَ مجالسكم هذه يَقُصُّ أحدُكم وعظَه على أصحابه ويسرُدُ الحديث سرداً ، إنما كنا نقعدُ فنذْكر الايمانَ ، و نتدبَّر القرءان و نتفقه في الدين ، و نعدّ نعم الله علينا تفقها ، فسمى تدبر القرءان وعد النعم تفقها. قال صلى الله عليه وسلم :(٢) « لَايَفْقَهُ الْعَبْدُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَمْقُتَ النَّاسَ فِي ذَاتِ اللهِ وَحَتَّى يَرَى لِلْقُرْءانِ وجُوهاً كَثِيرَةً » وروى أيضاموقوفاعلى أبي الدرداءرضي الله عنه مع قوله (ثُمَّ يُقْبِلَ عَلَى نَفْسِهِ فَيَكُونَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتاً) وقد سأل فَرْقَدُ السَّنجِي الحسن عن الشيء فأجابه فقال : إن الفقهاء يخالفونك ، فقال الحسن رحمه الله: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ فريقد، وهل رأيت فقيها بعينك ! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة ، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه ، الورع الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم ، ولم يقل في جميع ذلك : الحافظ لفروع الفتاوى . ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة ، ولكن كان بطريق العموم والشمول، أو بطريق الاستتباع ، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر . فبان من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد له والاعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ، ووجدوا على ذلك معينا من الطبع ، فان علم الباطن غامض، والعمل به عسير ، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر ، فوجد الشيطان مجالا لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع .

اللفظ الثاني : العلم — وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته و بأفعاله في عباده وخلقه ، حتى إنه لما مات عمر رضي الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله : لقد مات تسعة أعشار العلم ، فعرّفه بالألف واللام ، ثم فسره بالعلم بالله سبحانه وتعالى . وقد تصرفوا فيه أيضا بالتخصيص حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها ، فيقال : هو العالم على الحقيقة ، وهو الفحل في العلم . ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء ، ولا يعدونه في زمرة أهل العلم . وهذا أيضا تصرف بالتخصيص ، ولكن ماورد

(١) حديث أنس لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس الحديث: أبو داود باسناد حسن
(٤) حديث لايفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ـ الحديث : ابن عبد البر من حديث شداد ابن أوس وقل لا يصح مرفوعا

من فضائل العلم والعلماء أكثره فى العلماء بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته . وقد صار الآن مطلقا على من لا يحيط من علوم الشرع بشىء سوى رسوم جدلية فى مسائل خلافية ، فيعد بذلك من فحول العلماء ، مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره ، وصار ذلك سببا مهلكا لخلق كثير من أهل الطلب للعلم .

اللفظ الثالث : التوحيد — وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ، ومعرفة طريق المجادلة ، والاحاطة بطرق مناقضات الخصوم ، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات ، وتأليف الالزامات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، وسمى المتكلمون ، العلماء بالتوحيد ، مع أن جميع ماهو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شىء فى العصر الأول ، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح بابا من الجدل والمماراة ، فأما مايشتمل عليه القرءان من الأدلة الظاهرة التى تسبق الأذهان إلى قبولها فى أول السماع ، فلقد كان ذلك معلوما للكل . وكان العلم بالقرءان هو العلم كله ؛ وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به ، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله . فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل كما سيأتى بيانه فى كتاب التوكل . ومن ثمراته أيضا ترك شكاية الخلق ، وترك الغضب عليهم ، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى . وكانت إحدى ثمراته قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما قيل له فى مرضه : أنطلب لك طبيبا ؟ فقال : الطبيب أمرضنى . وقال آخر لما مرض فقيل له : ماذا قال لك الطبيب فى مرضك ؟ فقال : قال لى : إنى فعال لما أريد . وسيأتى في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك .

والتوحيد : جوهر نفيس ، وله قشران : أحدهما أبعد عن اللب من الآخر ، فخصص الناس الاسم بالقشر وبصنعة الحراسة للقشر ، وأهملوا اللب بالكلية . فالقشر الأول : هو أن تقول بلسانك : لا إله إلا الله . وهذا يسمى توحيدا مناقضا للتثليث الذى صرح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المنافق الذى يخالف سره جهره . والقشر الثانى : أن لا يكون فى القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول ، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده ، وكذلك التصديق به ، وهو توحيد عوام الخلق . والمتكلمون كما سبق حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة . والثالث وهو اللباب : أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط ، وأن يعبده

عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد أتباع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده . قال الله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ)وقال صلى الله عليه وسلم : « أَبْغَضُ إِلَٰهٍ عُبِدَ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْهَوَى (١) » . وعلى التحقيق : من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه ، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه ، فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبرعنها بالهواء . ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والالتفات اليهم ، فان من يرى الكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره ! فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام ، وهو مقام الصديقين . فانظر إلى ماذا حول وبأى قشر قنع منه ، وكيف اتخذوا هذا معتصما فى التمدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقى ؟ وذلك كإفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول : وجهتُ وَجهيَ للذى فطر السموات والأرضَ حنيفا ، وهو أول كذب يفاتح الله به كل يوم إن لم يكن وَجْه قلبه متوجها إلى الله تعالى على الخصوص ،فانه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجّهه إلا إلى الكعبة ، وما صرفه إلا عن سائر الجهات ؛ والكعبة ليست جهة للذى فطر السموات والأرض حتى يكون المتوجه اليها متوجها اليه، تعالى عن أن تحده الجهات والأقطار؛ وإن أراد به وجه القلب ، وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق فى قوله، وقلبهُ متردّد فى أوطاره وحاجاته الدنيوية ، ومتصرف فى طلب الحيل فى جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ، ومتوجه بالكلية اليها ، فمتى وجّه وجهه للذى فطر السموات والأرض ؟ وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالموحد هو الذى لا يرى إلا الواحد ، ولا يوجه وجهه إلا اليه ، وهو امتثال قوله تعالى : (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) وليس المراد به القول باللسان فانما اللسان ترجمان يصدق مرة ويكذب أخرى ، وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب ، وهو معدن التوحيد ومنبعه

اللفظ الرابع : الذكر والتذكير ــ فقد قال الله تعالى: (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) . وقد ورد فى الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة ، كقوله صلى الله عليه وسلم (٢) «إِذَا مَرَرْتُمْ

(١) حديث أبغض إله عبد عند الله فى الارض هو الهوى: الطبرانى من حديث أبى أمامه باسناد ضعيف
(٢) حديث اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ــ الحديث : الترمذى من حديث أنس وحسنه

بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا ، قيل: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ مَجَالِسُ الذِّكْرِ » وفى الحديث[١] « إِنَّ لِلهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الدُّنْيَا سِوَى مَلَائِكَةِ الْخَلْقِ إِذَا رَأَوْا مَجَالِسَ الذِّكْرِ يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَلَا هَلُمُّوا إِلَى بُغْيَتِكُمْ فَيَأْتُونَهُمْ وَيَحُفُّونَ بِهِمْ وَيَسْتَمِعُونَ ، أَلَا فَاذْكُرُوا اللهَ وَذَكِّرُوا أَنْفُسَكُمْ » فنقل ذلك إلى ماترى أكثر الوعاظ فى هذا الزمان ، يواظبون عليه ، وهو القصص والأشعار والشطح والطامات ، أما القصص فهى بدعة ؛ وقد ورد نهى السلف عن الجلوس إلى القُصّاص ، وقالوا :[٢] لم يكن ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى زمن أبى بكر ولا عمر رضى الله عنهما حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص.

وروى أن ابن عمر رضى الله عنهما خرج من المسجد فقال : ما أخرجني إلا القاصُّ ولولاه لما خرجت . وقال ضمرة : قلت لسفيان الثورى : نستقبل القاص بوجوهنا ؟ فقال : وَلُّوا البدعَ ظُهوركم . وقال ابن عون : دخلت على ابن سيرين فقال : ما كان اليوم من خبر ؟ فقلت : نهى الأمير القصاص أن يقصوا ، فقال : وُفّق للصواب . ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول : حدثنا الأعمش ، فتوسط الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه ، فقال القاص : ياشيخ ألا تستحي ! فقال : لم ؟ أنا فى سنة وأنت فى كذب ، أنا الأعمش وما حدثتك ! وقال أحمد : أكثر الناس كذبا القُصّاص والسُّؤّال .

وأخرج علىّ رضى الله عنه القصاصَ من مسجد جامع البصرة فلما سمع كلام الحسن البصرى لم يخرجه ، إذ كان يتكلم فى علم الآخرة ، والتفكير بالموت ، والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها ، ويذكّر بآلاء الله ونعمائه ، وتقصير العبد فى شكره ، ويعرّف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها ، وخطر الآخرة وأهوالها . فهذا هو التذكير المحمود شرعا الذى روى الحث عليه فى حديث أبى ذر رضى الله عنه حيث قال :[٣] « حُضُورُ مَجْلِسِ ذِكْرٍ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ أَلْفِ رَكْعَةٍ ، وَحُضُورُ مَجْلِسِ عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ عِيَادَةِ

(١) حديث إن لله ملائكة سياحين فى الهواء سوى ملائكة الخلق ـ الحديث: متفق عليه من حديث أبى هريرة دون قوله فى الهواء ، وللترمذى سياحين فى الارض ، وقال مسلم سيارة

(٢) حديث لم تكن القصص فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابن ماجه من حديث عمر باسناد حسن

(٣) حديث أبى ذر حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة: تقدم فى الباب الاول

أَلْفِ مَرِيضٍ ، وَحُضُورُ مَجْلِسِ عِلْمٍ أَفْضَلُ مِنْ شُهُودِ أَلْفِ جَنَازَةٍ . فقيل : يَا رَسُولَ اللهِ : وَمِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْءانِ ؟ قال : وهل تَنْفَعُ قِرَاءَةُ الْقُرْءانِ إِلاَّ بِالْعِلْمِ ؟ »وقال عطاء رحمه الله : مجلس ذكر يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو . فقد اتخذ المذخرفون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم ، ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم ، وذهلوا عن طريق الذكر المحمود ، واشتغلوا بالقصص التي تتطرق اليها الاختلافات والزيادة والنقص ، وتخرج عن القصص الواردة فى القرءان وتزيد عليها ، فان من القصص ماينفع سماعه، ومنها مايضر وإن كان صدقا . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب ، والنافع بالضار ، فمن هذا نهى عنه . ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أحوج الناس إلى قاص صادق !

فان كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم، وكان القاص صادقا صحيح الرواية ، فلست أرى به بأسا . فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومئ إلى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن درك معانيها، أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات متداركة بحسنات تغطى عليها ، فان العامى يعتصم بذلك فى مساهلاته وهفواته ويمهد لنفسه عذراً فيه ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر ، فكلنا بصدد المعاصى ، فلاغرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر منى ، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لايدرى . فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به ، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة ، وإلى ما يشتمل عليه القرءان ، ويصح فى الكتب الصحيحة من الأخبار

ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة فى الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فهذه من نزغات الشيطان ، فان فى الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غنية عن الاختراع فى الوعظ ، كيف وقد كره تكلف السجع وعد ذلك من التصنع ؟ قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لابنه عمر وقد سمعه يسجع : هذا الذى يبغضك إلىّ ، لا قضيت حاجتك أبدا حتى تتوب ! وقد كان جاءه فى حاجة . وقد قال صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن رواحة فى سجع من ثلاث كلمات(١): « إِيَّاكَ وَالسَّجْعَ يَاابْنَ رَوَاحَةَ »

---

(١) حديث اياك والسجع يا ابن رواحة لم أجده هكذا ولأحمد وأبى يعلى وابن السنى وأبى نعيم فى كتاب الرياضة من حديث عائشة باسناد صحيح أنها قالت للسائب إياك والسجع فان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لايسجعون ، ولابن حبان: واجتنب السجع ، وفى البخارى نحوه من قول ابن عباس

فكان السجع المحذور المتكلف مازاد على كلمتين ، ولذلك لما قال الرجل فى دية الجنين : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهل ، ومثل ذلك يطل ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « أَسَجْعٌ كَسَجْعِ الْأَعْرَابِ ! »

وأما الأشعار فتكثيرها فى المواعظ مذموم ، قال الله تعالى : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) وقال تعالى : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) وأكثر ماأعتاده الوعاظ من الأشعار مايتعلق بالتواصف بالعشق وجمال المعشوق ، وروح الوصال وألم الفراق ، والمجلس لايحوى إلا أجلاف العوام ، وبواطنهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة ، فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ماهو مستكن فيها ، فتشتعل فيها نيران الشهوات ، فيزعقون ويتواجدون ، وأكثر ذلك أوكله يرجع إلى نوع فساد ؛ فلاينبغى أن يستعمل من الشعر إلا مافيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم : [2] « إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً » ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم ، فان أولئك لايضر معهم الشعر الذى يشير ظاهره إلى الخلق ، فان المستمع ينزل كل مايسمعه على مايستولى على قلبه كما سيأتى تحقيق ذلك فى كتاب السماع ، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يتكلم على بضعة عشر رجلا ، فان كثروا لم يتكلم ، وما تم أهل مجلسه قط عشرين . وحضر جماعة باب دار ابن سالم فقيل له : تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال : لا ماهؤلاء أصحابى إنما هم أصحاب المجلس إن أصحابى هم الخواص .

وأما الشطح فنعنى به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية :

أحدهما ــ الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا وقلنا كذا ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أنا الحق . وبما حكى عن أبى

---

(١) حديث أسجع كسجع الأعراب : مسلم من حديث المغيرة

(٢) حديث إن من الشعر لحكمة : البخارى من حديث أبي بن كعب

يزيد البسطامي أنه قال : سبحانى سبحانى ؛ وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام ؛ حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فان هذا الكلام يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس . وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق. فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره وعظم فى العوام ضرره حتى من نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله ، فلا يصح عنه مايحكى ، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه ، كما لو سمع وهو يقول : إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، فانه ما كان ينبغى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

الصنف الثانى من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط فى عقله وتشويش فى خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر. وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معانى ما أريدت بها ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَاحَدَّثَ أَحَدُكُمْ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَايَفْقَهُونَهُ إِلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِمْ » . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « كَلِّمُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟ » وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله ؟ فان كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى عليه السلام لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها

---

(١) حديث ماحدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم : العقيلي فى الضعفاء وابن السنى وأبو نعيم فى الرياء من حديث ابن عباس باسناد ضعيف ولمسلم فى مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود

(٢) حديث كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ماينكرون ـ الحديث : البخاري موقوفا على على ورفعه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من طريق أبى نعيم

فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء . وفى لفظ آخر : من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقدظلم ، إن للحكمة حقا ، وإن لها أهلا ، فأعط كل ذى حق حقه .

وأما الطامات، فيدخلها ماذكرناه فى الشطح ، وأمر آخر يخصهاوهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لايسبق منها إلى الأفهام فائدة: كدأب الباطنية فى التأويلات، فهذا أيضا حرام وضرره عظيم ،فان الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ، ومن غيرضرورة تدعو اليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه و سلم ، فان مايسبق منه إلى الفهم لايوثق به ، والباطن لاضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى ؛ وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر ، وإنما قصد أصحابها الإغراب ، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له . وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها ، وتنزيلها على رأيهم ، كما حكيناه من مذاهبهم فى كتاب المستظهرى المصنف فى الرد على الباطنية

ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم فى تأويل قوله تعالى : (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) : إنه إشارة إلى قلبه ، وقال هو المراد بفرعون، وهو الطاغى على كل إنسان، وفى قوله تعالى : (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) أى كل مايتوكأ عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل ؛ فينبغى أن يلقيه ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم :[1] « تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَةً » أراد به الاستغفار فى الأسحار . وأمثال ذلك، حتى يحرفون القرءان من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء . وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعا ، كتنزيل فرعون على القلب ، فان فرعون شخص محسوس تواتر الينا النقل بوجوده ودعوة موسى له ، وكأبى جهل وأبى لهب وغيرهما من الكفار ، وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل الى ألفاظه . وكذا حمل السحور على الاستغفار ، فانه كان

---

(١) حديث تسحروا فان فى السحور بركة : متفق عليه من حديث أنس

صلى الله عليه وسلم: (١) « يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ، وَيَقُولُ: تَسَحَّرُوا » (٢) و « هَلُمُّوا إِلَى الْغَذَاءِ الْمُبَارَكِ » .
فهذه أمور يدرك بالتواتر والحس بطلانها نقلا ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك فى أمور لا يتعلق بها الاحساس . فكل ذلك حرام وضلالة ، وإفساد للدين على الخلق، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصرى مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم (٣) « مَنْ فَسَّرَ الْقُرْءانَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » معنى إلا هذا النمط ، وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه ، فيستجر شهادة القرءان اليه ، ويحمله عليه من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية أو نقلية .

ولا ينبغى أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرءان بالاستنباط والفكر، فان من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معان وستة وسبعة ، ويعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم ، فانها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستنبطا بحسن الفهم وطول الفكر . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه (٤) « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالألفاظ ويزعم أنه يقصد بها دعوة الخلق الى الخالق، يضاهى من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هو فى نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع : كمن يضع فى كل مسألة يراها حقاً حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك ظلم وضلال ، ودخول فى الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم (٥) « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن

---

(١) حديث تناول الطعام فى السحور : البخارى من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا

(٢) حديث هلموا إلى الغذاء المبارك : أبوداود والنسائى وابن حبان من حديث العرباض بن سارية وضعفه ابن القطان

(٣) حديث من فسر القرءان برأيه فليتبوأ مقعده من النار : الترمذي من حديث ابن عباس وحسنه وهو عند أبى داود من رواية ابن العبد وعند النسائى فى الكبرى

(٤) حديث اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل قاله لابن عباس: البخارى من حديث ابن عباس دون قوله : وعلمه التأويل ، وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الاسناد

(٥) حديث من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار : متفق عليه من حديث أبى هريرة وعلى وأنس

النَّارِ » بل الشر فى تأويل هـذه الألفاظ أطم وأعظم ، لأنها مبطلة للثقة بالألفاظ ، وقاطعـة طريق الاستفادة والفهم من القرءان بالكليـة . فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعى الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة . فكل ذلك من تلبيس علماء السوء بتبديل الأسامى، فان اتبعت هؤلاء اعتمادا على الاسم المشهور من غير التفات الى ماعرف فى العصر الأول ، كنت كمن طلب الشرف بالحكمة باتباع من يسمى حكيما ، فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم فى هذا العصر ، وذلك بالغفلة عن تبديل الألفاظ

اللفظ الخامس : وهو الحكمة ـ فان اسم الحكيم صار يطلق على الطبيب والشاعر والمنجم ، حتى على الذى يدحرج القرعة على أكف السوادية فى شوارع الطرق . والحكمة هى التى أثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى : (يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) . وقال صلى الله عليه وسلم[1] « كَلِمَةٌ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ يَتَعَلَّمُهَا ٱلرَّجُلُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » فانظر ما الذى كانت الحكمة عبارة عنه ، وإلى ماذا نقل ، وقس به من بقية الألفاظ ، واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء ، فان شرهم على الدين أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق . ولهذا[2] لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أبى وقال: « ٱللَّهُمَّ غَفْرًا » حتى كرروا عليه فقال : « هُمْ عُلَمَاءُ السُّوءِ » فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس، واليك الخيرة فى أن تنظر لنفسك ، فتقتدى بالسلف ، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ماارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ،وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث ، وقد صح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] « بَدَأَ ٱلإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ » فقيل : ومن الغرباء؟ قَالَ ٱلَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَهُ ٱلنَّاسُ مِنْ سُنَّتِى . وَٱلَّذِينَ يُحْيُونَ مَا أَمَاتُوهُ مِن سُنَّتِى »

---

(١) حديث كلمة من الحكمة يتعلمها الرجل خير له من الدنيا : تقدم بنحوه

(٢) حديث لما سئل عن شر الخلق أبى وقال اللهم غفرا ـ الحديث : الدارمى بنحوه من رواية الأحوص ابن حكيم عن أبيه مرسلا وهو ضعيف ورواه البزار فى مسنده من حديث معاذ بسند ضعيف

(٣) حديث بدأ الاسلام غريبا ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة مختصراً وهو بتمامه عند الترمذى من حديث عمرو بن عوف وحسنه

وفى خبر آخر (١) « هُمُ الْمُتَمَسِّكُونَ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ » وفى حديث آخر (٢) « الْغُرَبَاءُ نَاسٌ قَلِيلٌ صَالِحُونَ بَيْنَ نَاسٍ كَثِيرٍ مَنْ يُبْغِضُهُمْ فِي الْخَلْقِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُحِبُّهُمْ » . وقدصارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها . ولذلك قال الثورى رحمه الله : إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخاط ، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام : قسم هو مذموم قليله وكثيره ، وقسم هو محمود قليله وكثيره ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل، وقسم يحمد منه مقدار الكفاية ولا يحمد الفاضل عليه ، والاستقصاء فيه ، وهو مثل أحوال البدن ، فان منها مايحمد قليله وكثيره كالصحة والجمال ، ومنها مايذم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنها مايحمد الاقتصاد فيه كبذل المال فان التبذير لايحمد فيه وهو بذل، وكالشجاعة فان التهور لايحمد فيها وإن كان من جنس الشجاعة ، فكذلك العلم

فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو مالافائدة فيه فى دين ولا دنيا ، إذ فيه ضرر يغلب نفعه : كعلم السحر والطلسمات والنجوم ، فبعضه لافائدة فيه أصلا، وصرف العمر الذى هو أنفس مايملكه الانسان اليه إضاعة ، وإضاعة النفيس مذمومة ، ومنه مافيه ضرر يزيد على مايظن أنه يحصل به من قضاء وطر فى الدنيا ، فان ذلك لايعتد به بالاضافة إلى الضرر الحاصل عنه

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء ، فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته فى خلقه وحكمته فى ترتيب الآخرة على الدنيا ، فان هذا علم مطلوب لذاته ، وللتوصل به إلى سعادة الآخرة ، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب ، فانه البحر الذى لايدرك غوره ، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر مايسّر لهم ، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون فى العلم على اختلاف درجاتهم ، بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت

---

(١) حديث هم المتمسكون بما أنتم عليه اليوم يقوله فى وصف الغرباء : لم أر له أصلا

(٢) حديث الغرباء ناس قليلون صالحون : أحمد من حديث عبدالله بن عمرو

تقدير الله تعالى فى حقهم، وهذا هو العلم المكنون الذى لايسطر فى الكتب . ويعين على التنبه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة كما سيأتى علامتهم ، هذا فى أول الأمر . ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة ، وتصفية القلب وتفريغه عن علائق الدنيا ، والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ، ليتضح منه لكل ساع إلى طلبه بقدر الرزق لابقدر الجهد ، ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد ، فالمجاهدة مفتاح الهداية لامفتاح لها سواها

وأما العلوم التى لايحمد منها إلا مقدار مخصوص ، فهى العلوم التى أوردناها فى فروض الكفايات ، فان فى كل علم منها اقتصارا وهو الأقل، واقتصادا وهو الوسط ، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لامرد له إلى آخر العمر . فكن أحد رجلين : إما مشغولا بنفسك ، وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك ، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك، فان كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذى هو فرض عليك بحسب مايقتضيه حالك ، وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة : من تعلم الصلاة ، والطهارة ، والصوم ، وإنما الأهم الذى أهمله الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يذم ، إذ لاينفك بشر عن الصفات المذمومة : مثل الحرص والحسد ، والرياء ، والكبر ، والعجب وأخواتها ؛ وجميع ذلك مهلكات، وإهمالها من الواجبات مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهى الاشتغال بطلاء ظاهر البدن عند التأذى بالجرب والدماميل ، والتهاون باخراج المادة بالفصد والإسهال . وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطرقية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن، وعلماء الآخرة لايشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر : بافساد منابتها ، وقلع مغارسها من القلب . وإنما فزع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسهولة أعمال الجوارح ، واستصعاب أعمال القلوب ، كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة ، فلا يزال يتعب فى الطلاء ويزيد فى المواد ، وتتضاعف به الأمراض

فان كنت مريداً للآخرة وطالبا للنجاة وهاربا من الهلاك الأبدى ، فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها ، على مافصلناه فى ربع المهلكات . ثم ينجرّ بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة فى ربع المنجيات لامحالة . فان القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود ، والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين، وإن لم تفرّغ من ذلك لم تنبت ذاك ، فلا تشتغل بفروض الكفاية ، لاسيما وفى زمرة الخلق من قد قام بها ، فان مهلك نفسه فيما به

صلاح غيره سفيه . فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبَّة يدفع بها الذباب عن غيره ممن لايغنيه ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به !

وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها ، وقدرت على ترك ظاهر الأثم وباطنه ، وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة فيك ، وما أبعد ذلك منك ، فاشتغل بفروض الكفايات ، وراع التدريج فيها : فابتدىء بكتاب الله تعالى ، ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرءان : من علم الناسخ والمنسوخ ، والمفصول والموصول ، والمحكم والمتشابه ، وكذلك فى السنة . ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ، ثم بأصول الفقه ، وهكذا إلى بقية العلوم على مايتسع له العمر ويساعد فيه الوقت . ولا تستغرق عمرك فى فن واحد منها طلبا للاستقصاء ، فان العلم كثير والعمر قصير . وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها ، وكل مايطلب لغيره فلا ينبغى أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه ، فاقتصر من شائع علم اللغة على ماتفهم منه كلام العرب وتنطق به ، ومن غريبه على غريب القرءان وغريب الحديث ، ودع التعمق فيه . واقتصر من النحو على مايتعلق بالكتاب والسنة ، فما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء .

ونحن نشير اليها فى الحديث والتفسير والفقه والكلام لتقيس بها غيرها .

فالاقتصار فى التفسير مايبلغ ضعف القرءان فى المقدار ، كما صنفه على الواحدى النيسابورى وهو الوجيز ، والاقتصاد مايبلغ ثلاثة أضعاف القرءان كما صنفه من الوسيط فيه ، وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه ، فلا مرد له الى انتهاء العمر .

وأما الحديث فالاقتصار فيه تحصيل مافى الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث .

وأما حفظ أسامى الرجال فقد كفيت فيه بما تحمله عنك من قبلك ، ولك أن تعول على كتبهم ، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ، ولكن تحصله تحصيلا تقدر منه على طلب ماتحتاج اليه عند الحاجة . وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف اليهما ماخرج عنهما مما ورد فى المسندات الصحيحة . وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوى والصحيح

والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة فى النقل ، ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم .
وأما الفقه فالاقتصار فيه على مايحويه مختصر المزنى رحمه الله ، وهو الذى رتبناه فى خلاصة المختصر . والاقتصاد فيه مايبلغ ثلاثة أمثاله ، وهو القدر الذى أوردناه فى الوسيط من المذهب ، والاستقصاء ما أوردناه فى البسيط ، الى ماوراء ذلك من المطولات

وأما الكلام فمقصوده حماية المعتقدات التى نقلها أهل السنة من السلف الصالح لاغير ، وماوراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقتها . ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الاقتصار منه بمعتقد مختصر ، وهو القدر الذى أوردناه فى كتاب قواعد العقائد من جملة هذا الكتاب ، والاقتصاد فيه مايبلغ قدر مائة ورقة ، وهو الذى أوردناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد ، ويحتاج اليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي ، وذلك لاينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم .وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئاً يسيراً فقلما ينفع معه الكلام ، فانك إن أفحمته لم يترك مذهبه ، وأحال بالقصور على نفسه ، وقدّر أن عند غيره جوابا ما وهو عاجز عنه ، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة . وأما العامي إذا صُرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد اليه بمثله قبل أن يشتدّ التعصب للأهواء . فاذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم ، إذ التعصب سبب يرسخ العقائد فى النفوس ، وهو من آفات العلماء السوء ، فانهم يبالغون فى التعصب للحق ، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار ، فتنبعث منهم الدعوي بالمكافأة والمقابلة والمعاملة وتتوافر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ، ويقوى غرضهم فى التمسك بما نسبوا اليه ، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح فى الخلوة لا فى معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه .ولكن لما كان الجاه لايقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل الأتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم ، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذبًا عن الدين ونضالا عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة فى النفوس

وأما الخلافيات التى أُحدثت فى هذه الأعصار المتأخرة ، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات مالم يعهد مثلها فى السلف ، فإياك وأن تحوم حولها ، واجتنبها

اجتناب السم القاتل، فانها الداء العضال ، وهو الذى رد الفقهاء كلهم الى طلب المنافسة والمباهاة على ماسيأتيك تفصيل غوائلها وآفاتها . وهذا الكلام ربما يسمع من قائله ، فيقال : الناس أعداء ماجهلوا . فلا تسننّ ذلك، فعلى الخبير سقطت ؛ فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زمانا ، وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبيانا ، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه ، فهجره واشتغل بنفسه ؛ فلا يغرنك قول من يقول : الفتوى عماد الشرع ، ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف ، فان علل المذهب مذكورة فى المذهب ، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة ، وكانوا أعلم بعلل الفتاوى من غيرهم ، بل هى مع أنها غير مفيدة فى علم المذهب ضارة مفسدة لذوق الفقه ؛ فان الذى يشهد له حدس المفتى إذا صح ذوقه فى الفقه لا يمكن تمشيته على شروط الجدل فى أكثر الأمر . فمن ألف طبعه رسوم الجدل أذعن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لذوق الفقه ، وإنما يشتغل به من يشتغل لطلب الصيت والجاه ، ويتعلل بأنه يطالب علل المذهب ، وقد ينقضى عليه العمر ولا تنصرف همته إلى علم المذهب . فكن من شياطين الجن فى أمان ، واحترز من شياطين الانس ، فانهم أراحوا شياطين الجن من التعب فى الإغواء والإضلال

وبالجملة فالمرضِىّ عند العقلاء أن تقدر نفسك فى العالَم وحدك مع الله ، و بين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار، وتأمل فيما يعنيك مما بين يديك ، ودع عنك ماسواه، والسلام

وقد رأى بعضُ الشيوخ بعضَ العلماء فى المنام فقال له : ماخبر تلك العلوم التى كنت تجادل فيها وتناظر عليها ؟ فبسط يده و نفخ فيها ، وقال : طاحت كلها هباء منثورا، وما انتفعتُ إلا بركعتين خلصتا لى فى جوف الليل ! وفى الحديث (١) « مَاضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ » ثم قرأ (مَاضَرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) . وفي الحديث فى معنى قوله تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) الآية (٢) هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله تعالى: (فَاحْذَرْهُمْ) . وقال بعض السلف : يكون فى آخر الزمان قوم يغلق عليهم باب العمل ، ويفتح

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل :الترمذي وابن ماجه من حديث أبي أمامة، قال الترمذى حسن صحيح

(٢) حديث هم أهل الجدل الذين عنى الله بقوله فاحذرهم : متفق عليه من حديث عائشة

لهم باب الجدل . وفى بعض الأخبار[١] « إِنَّكُمْ فِى زَمَانٍ أُلْهِمْتُمْ فِيهِ الْعَمَلَ وَسَيَأْتِى قَوْمٌ يُلْهَمُونَ الْجَدَلَ » وفى الخبر المشهور[٢] « أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الأَلَدُّ الْخَصِمُ » وفى الخبر[٣] « مَا أُوتِيَ قَوْمٌ الْمَنْطِقَ إِلاَّ مُنِعُوا الْعَمَلَ » . والله أعلم

الباب الرابع

فى سبب إقبال الخلق على علم الخلاف

وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون المهديون ، وكانوا أئمة علماء بالله تعالى ، فقهاء فى أحكامه ، وكانوا مستقلين بالفتاوى فى الأقضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا ، فى وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم ، كما نقل من سيرهم . فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء ، وإلى استصحابهم فى جميع أحوالهم لاستفتائهم فى مجارى أحكامهم .

وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول ، وملازم صفو الدين ، ومواظب على سمت علماء السلف ، فكانوا إذا طُلبوا هربوا وأعرضوا ، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح فى طلبهم لتولية القضاء والحكومات

فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم ، فاشرأبوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة ، فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة ، وتعرفوا اليهم ، وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فمنهم من

---

(١) حديث إنكم فى زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتى قوم يلهمون الجدل : لم أجده

(٢) حديث أبغض الخلق الى الله الألد الخصم : متفق عليه من حديث عائشة

(٣) حديث ما أوتى قوم المنطق إلا منعوا العمل: لم أجد له أصلا

حرم ومنهم من أنجح ، والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتذال ، فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم، إلا من وفقه الله تعالى فى كل عصر من علماء دين الله . وقد كان أكثر الاقبال فى تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدّة الحاجة اليها فى الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس فى قواعد العقائد ، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها ، فعامت رغبته إلى المناظرة والمجادلة فى الكلام ،فأكب الناس على علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف، ورتبوا فيه طرق المجادلات، واستخرجوا فنون المناقضات فى المقالات، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين ،إشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم، ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض فى الكلام وفتح باب المناظرة فيه، لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة فى الفقه ، وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات، وهم مستمرون عليه إلى الآن ، ولسنا ندرى ما الذى يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار .فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافيات والمناظرات لاغير ، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو الى علم آخر من العلوم لمالوا أيضا معهم ، ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين .

بيان التلبيس فى تشبيه هذه المناظرات

بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

اعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس الى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق ليتضح ، فان الحق مطلوب والتعاون على النظر فى العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر ، هكذا

كان عادة الصحابة رضى الله عنهم فى مشاوراتهم: كتشاورهم فى مسألة الجد والإخوة ، وحدّ شرب الخمر ، ووجوب الغرم على الامام إذا أخطأ ، كما نقل من إجهاض المرأة جنينها خوفا من عمر رضى الله عنه ، وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها ، وما نقل عن الشافعى وأحمد ومحمد ابن الحسن ومالك وأبى يوسف وغيرهم من العلماء ، رحمهم الله تعالى

ويطلعك على هذا التلبيس ماأذكره، وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ، ولكن له شروط وعلامات ثمان :

الأول — أن لايشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان. ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق فهو كذاب ، ومثاله من يترك الصلاة فى نفسه ويتجرد فى تحصيل الثياب ونسجها ويقول : غرضى أستر عورة من يصلى عريانا ولا يجد ثوبا ، فان ذلك ربما يتفق ، ووقوعه ممكن ، كمايزعم الفقيه أن وقوع النوادر التى عنها البحث فى الخلاف ممكن ، والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هى فرض عين بالاتفاق . ومن توجه عليه ردّ وديعة فى الحال فقام وأحرم بالصلاة التى هى أقرب القربات الى الله تعالى عصى به ، فلا يكفى فى كون الشخص مطيعا كون فعله من جنس الطاعات مالم يراع فيه الوقت والشرط والترتيب .

الثانى — أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة ، فان رأى ماهو أهم وفعل غيره عصى بفعله، وكان مثاله مثال من يرى جماعة من العطاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقيهم الماء ، فاشتغل بتعلم الحجامة وزعم أنه من فروض الكفايات ، ولو خلا البلد عنها لهلك الناس، وإذا قيل له فى البلد جماعة من الحجامين وفيهم غنية ، فيقول : هذا لايخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية . فحال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملمة بجماعة العطاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفى البلد فروض كفايات مهملة لاقائم بها . فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهملة ولا يلتفت الفقهاء اليها ، وأقربها الطب ، إذ لايوجد فى أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعا ، ولا يرغب أحد من الفقهاء فى الاشتغال به . وكذا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهو من فروض الكفايات ، وربما يكون المناظر فى مجلس مناظرته مشاهدا للحرير ملبوسا ومفروشا وهو ساكت ، ويناظر فى مسألة لايتفق وقوعها قط ، وإن وقعت قام بها

جماعة من الفقهاء ، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات، وقد روى أنس رضى الله عنه أنه « قِيلَ يَارَسُولَ اللهِ (١) مَتَى يُتْرَكُ الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْىُ عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَقَال عليه السّلامُ : إِذَا ظَهَرَتِ الْمُدَاهَنَةُ فِي خِيَارِكُمْ وَالْفَاحِشَةُ فِى شِرَارِكُمْ وَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ وَالْفِقْهُ فِى أَرَاذِلِكُمْ »

الثالث — أن يكون المناظر مجتهدا يفتى برأيه لا بمذهب الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما، حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبى حنيفة ترك مايوافق رأى الشافعى وأفتى بما ظهر له ، كما كان يفعله الصحابة رضى الله عنهم والأئمة ، فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتى فيما يُسأل عنه ناقلا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه ، فأى فائدة له فى المناظرة ومذهبه معلوم وليس له الفتوى بغيره ، وما يشكل عليه يلزمه أن يقول لعل عند صاحب مذهبي جوابا عن هذا فانى لست مستقلا بالاجتهاد فى أصل الشرع ؟ ولو كانت مباحثته عن المسائل التى فيها وجهان أوقولان لصاحبه لكان أشبه به، فانه ربما يفتى بأحدهما فيستفيد من البحث ميلا إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط ، بل ربما ترك المسألة التى فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتا

الرابع — أن لا يناظر إلا فى مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً ، فان الصحابة رضى الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع ، أو ما يغلب وقوعه كالفرائض ، ولا نرى المناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التى تعم البلوى بالفتوى فيها ، بل يطلبون الطبوليات التى تسمع فيتسع مجال الجدل فيها كيفما كان الأمر . وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون هذه مسألة خبرية أو هى من الزوايا وليست من الطبوليات ، فمن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتركون المسألة لأنها خبرية ومدرك الحق فيها هو الأخبار . أو لأنها ليست من الطبول فلا نطول فيها الكلام ، والمقصود فى الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول

الخامس — أن تكون المناظرة فى الخلوة أحب اليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر

﴿ الباب الرابع ﴾

(١) حديث أنس قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : ابن ماجه باسناد حسن

والسلاطين . فان الخلوة أجمع للفهم ، وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفى حضور الجمع ما يحرك دواعى الرياء ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محقاً كان أو مبطلا ، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والمجامع ليس لله ، وأن الواحد منهم يخلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه ، وربما يقترح عليه فلايجيب ، وإذا ظهر مقدم أو انتظم مجمع لم يغادر فى قوس الاحتيال منزعا حتى يكون هو المتخصص بالكلام .

السادس ـ أن يكون فى طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه ، ويرى رفيقه معينا لا خصما ، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، كما لو أخذ طريقا فى طلب ضالته فنبهه صاحبه على ضالته فى طريق آخر ، فانه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به ، فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضى الله عنهم ، حتى إن امرأة ردت على عمر رضى الله عنه ونبهته على الحق وهو فى خطبته على ملأ من الناس ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ رجل . وسأل رجل عليا رضى الله عنه فأجابه فقال : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا ، فقال : أصبتَ وأخطأتُ وفوق كل ذى علم عليم . واستدرك ابن مسعود على أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما فقال أبو موسى : لا تسألونى عن شىء وهذا الحبر بين أظهركم ، وذلك لما سئل أبو موسى عن رجل قاتل فى سبيل الله فقتل ، فقال : هو فى الجنة ، وكان أمير الكوفة ، فقام ابن مسعود فقال أعده على الأمير فلعله لم يفهم ، فأعادوا عليه ، فأعاد الجواب ، فقال ابن مسعود : وأنا أقول : إن قتل فأصاب الحق فهو فى الجنة ، فقال أبو موسى : الحق ما قال . وهكذا يكون إنصاف طالب الحق . ولو ذكر مثل هذا الآن لأقل فقيه لأنكره واستبعده وقال لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق ، فان ذلك معلوم لكل أحد . فانظر إلى مناظرى زمانك اليوم كيف يسودّ وجه أحدهم إذا اتضح الحق على لسان خصمه ، وكيف يخجل به ، وكيف يجتهد فى مجاحدته بأقصى قدرته ، وكيف يذم من أفحمه طول عمره ، ثم لا يستحيي من تشبيه نفسه بالصحابة رضى الله عنهم فى تعاونهم على النظر فى الحق !

السابع ـ أن لا يمنع معينه فى النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ، ومن إشكال إلى إشكال ، فهكذا كانت مناظرات السلف ، ويُخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيما له وعليه ، كقوله : هذا لا يلزمنى ذكره ، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك ، فان الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ، ويجب قبوله . وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضى فى المدافعات والمجادلات حتى يقيس

المستدل على أصل بعلّة يظنها فيقال له : ماالدليل على أن الحكم فى الأصل معلل بهذه العلة ؟ فيقول: هذا ماظهر لى فان ظهر لك ماهو أوضح منه وأولى فاذكره حتى أنظر فيه ، فيصر المعترض ويقول : فيه معان سوى ماذكرته وقدعرفتها ولاأذكرها إذ لايلزمني ذكرها؛ ويقول المستدل: عليك إيراد ماتدعيه وراء هذا ، ويصر المعترض على أنه لايلزمه ، ويتوخى مجالس المناظرة بهذا الجنس من السؤال وأمثاله، ولايعرف هذا المسكين أن قوله إنى أعرفه ولاأذكره إذلا يلزمنى، كذب على الشرع ، فانه إن كان لايعرف معناه وإنما يدعيه ليعجز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو خال عنها ، وإن كان صادقا فقدفسق بإخفائه ماعرفه من أمر الشرع وقد سأله أخوه المسلم ليفهمه وينظر فيه، فان كان قويا رجع اليه، وإن كان ضعيفا أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل إلى نور العلم . ولا خلاف أن إظهار ماعلم من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم . فمعنى قوله : لايلزمنى ، أى فى شرع الجدل الذى أبدعناه بحكم التشهى والرغبة فى طريق الاحتيال والمصارعة بالكلام لايلزمنى ، وإلا فهو لازم بالشرع ، فانه بامتناعه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق .

فتفحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضى الله عنهم : هل سمعت فيها مايضاهى هذا الجنس ؟ وهل منع أحدمن الانتقال من دليل إلى دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية ؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس ، إذ كانوا يذكرون كل مايخطر لهم كما يخطر ، وكانوا ينظرون فيه

الثامن — أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم ، والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والأكابر خوفا من ظهور الحق على ألسنتهم ، فيرغبون فيمن دونهم طمعا فى ترويج الباطل عليهم

ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ؛ ولكن فى هذه الشروط الثمانية مايهديك إلى من يناظر لله ومن يناظر لعلة

واعلم بالجملة أن من لايناظر الشيطان وهو مستول على قلبه وهو أعدى عدو له ولا يزال يدعوه إلى هلاكه ، ثم يشتغل بمناظرة غيره فى المسائل التى المجتهد فيها مصيب أومساهم للمصيب فى الأجر ، فهو ضحكة للشيطان ، وعبرة للمخلصين . ولذلك شمت الشيطان به لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التى نعددها ونذكر تفاصيلها . فنسأل الله حسن العون والتوفيق

بيان آفات المناظرة ومايتولد منها

من مهلكات الأخلاق

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام، وإظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس، هى منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدو الله إبليس، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة: من الزنا، والقذف والقتل والسرقة، وكما أن الذى خُيِّر بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه، فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش فى سكره، فكذلك من غلب عليه حب الافحام والغلبة فى المناظرة وطلب الجاه والمباهاة، دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها فى النفس، وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة. وهذه الأخلاق ستأتى أدلة مذمتها من الأخبار والآيات فى ربع المهلكات، ولكنا نشير الآن إلى مجامع ماتهيجه المناظرة:

فمنها الحسد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « اَلْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » . ولا ينفك المناظر عن الحسد، فانه تارة يغلب وتارة يغلب، وتارة يحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره؛ فما دام يبقى فى الدنيا واحد يذكر بقوة العلم والنظر، أو يظن أنه أحسن منه كلاما وأقوى نظرا، فلا بد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه، وانصراف القلوب والوجوه عنه اليه. والحسد نار محرقة، فمن بلى به فهو فى العذاب فى الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأعظم، ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما: خذوا العلم حيث وجدتموه؛ ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فانهم يتغايرون كما تتغاير التيوس فى الزريبة

ومنها التكبر والترفع على الناس، فقدقال صلى الله عليه وسلم[2] « مَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ

---

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب: أبو داود من حديث أبى هريرة، وقال البخارى لايصح، وهو عند ابن ماجه من حديث أنس باسناد ضعيف، وفى تاريخ بغداد باسناد حسن

(٢) حديث من تكبر وضعه الله ـ الحديث: الخطيب من حديث عمر باسناد صحيح وقال غريب من حديث الثوري ولابن ماجه نحوه من حديث أبى سعيد بسند حسن

وَمَنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ اللهُ » . وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى (١) « الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ » . ولا ينفك المناظر عن التكبر على الأقران والأمثال ، والترفع إلى فوق قدره ، حتى إنهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض ، والقرب من وسادة الصدر والبعد منها ، والتقدم في الدخول عند مضايق الطرق . وربما يتعلل الغبي والمكار الخداع منهم بأنه يبغي صيانة عز العلم ، (٢) و « أَنَّ الْمُؤْمِنَ مَنْهِيٌّ عَنِ الْإِذْلَالِ لِنَفْسِهِ » فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالذل ، وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين ، تحريفا للاسم ، وإضلالا للخلق به ، كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما .

ومنها الحقد ، فلا يكاد المناظر يخلو عنه . وقد قال صلى الله عليه وسلم (٣) « الْمُؤْمِنَ لَيْسَ بِحَقُودٍ » . وورد في ذم الحقد مالا يخفى ، ولا نرى مناظرا يقدر على أن لا يضمر حقدا على من يحرك رأسه من كلام خصمه ، ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء ، بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته في نفسه ، وغاية تماسكه الإخفاء بالنفاق ، ويترشح منه إلى الظاهر لا محالة في غالب الأمر . وكيف ينفك عن هذا ، ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه ، واستحسان جميع أحواله في إيراده وإصداره ؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه انغرس في صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر

ومنها الغيبة ، وقد شبهها الله بأكل الميتة ، ولا يزال المناظر مثابرا على أكل الميتة ، فانه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته . وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه ، فيحكي عنه لا محالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله ، وهو الغيبة . فأما الكذب فبهتان ، وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه ويصغي إلى خصمه ويقبل عليه ، حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة وقلة الفهم والبلادة .

---

(١) حديث الكبرياء ردائي والعظمة ازاري ـ الحديث : أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ، وهو عند مسلم بلفظ الكبرياء رداؤه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد

(٢) حديث نهى المؤمن عن إذلال نفسه : الترمذي وصححه وابن ماجه من حديث حذيفة لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه

(٣) حديث المؤمن ليس بحقود : لم أقف له على أصل

ومنها تزكية النفس ، قال الله تعالى: (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ) . وقيل لحكيم : ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه . ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة ، والتقدم بالفضل على الأقران . ولا ينفك فى أثناء المناظرة عن قوله : لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور ، وأنا المتفنن فى العلوم ، والمستقل بالأصول وحفظ الأحاديث ، وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف ، وتارة للحاجة إلى ترويج كلامه . ومعلوم أن الصلف والتمدح مذمومان شرعا وعقلا .

ومنها التجسس وتتبع عورات الناس ، وقد قال تعالى : (وَلَا تَجَسَّسُوا) . والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه وتتبع عورات خصومه ، حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله ، ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها ذخيرة لنفسه فى إفضاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة ، حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره ، ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرّض به إن كان متماسكا ، ويستحسن ذلك منه ، ويعد من لطائف التسبب ، ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحا بالسفاهة والاستهزاء ، كما حكى عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم .

ومنها الفرح لمساءة الناس والغم لمسارّهم ، ومن لا يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين ، فكل من طلب المباهاة باظهار الفضل يسره لا محالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه فى الفضل ، ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر ، فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبتها من بعيد ارتعدت فرائصها واصفر لونها ، فهكذا ترى المناظر إذا رأى مناظرا تغير لونه واضطرب عليه فكره ، فكأنه يشاهد شيطانا ماردا أو سبعا ضاريا ! فأين الاستئناس والاسترواح الذى كان يجرى بين علماء الدين عند اللقاء ، وما نقل عنهم من المؤاخاة والتناصر والتساهم فى السراء والضراء ، حتى قال الشافعى رضى الله عنه : العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل . فلا أدرى كيف يدعى الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة ، فهل يتصور أن ينسب الأنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة ؟ هيهات هيهات! وناهيك بالشر شرا أن يُلزمك أخلاقَ المنافقين ، ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين

ومنها النفاق ، فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد فى ذمه ، وهم مضطرون اليه ، فانهم يلقون

الخصوم ومحبيهم وأشياعهم ولا يجدون بدًّا من التودد اليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم ، ويعلم ذلك المخاطب والمخاطَب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور ونفاق وفجور ، فانهم متوددون بالألسنة متباغضون بالقلوب . نعوذ بالله العظيم منه ! فقد قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِذَا تَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلْعِلْمَ وَتَرَكُوا ٱلْعَمَلَ وَتَحَابُّوا بِٱلْأَلْسُنِ وَتَبَاغَضُوا بِٱلْقُلُوبِ وَتَقَاطَعُوا فِى ٱلْأَرْحَامِ، لَعَنَهُمُ ٱللهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ » رواه الحسن، وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة

ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة فيه ، حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق، ومهما ظهر تشمر لجحده وإنكاره بأقصى جهده، وبذل غاية إمكانه فى المخادعة والمكر والحيلة لدفعه، حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية ، فلا يسمع كلاما إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه، حتى يغلب ذلك على قلبه فى أدلة القرءان وألفاظ الشرع، فيضرب البعض منها بالبعض . والمراء فى مقابلة الباطل محذور ، إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء بالحق على الباطل ، قال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « مَنْ تَرَكَ ٱلْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بَنَى ٱللهُ لَهُ بَيْتًا فِى رَبَضِ ٱلْجَنَّةِ ،وَمَنْ تَرَكَ ٱلْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَى ٱللهُ لَهُ بَيْتًا فِى أَعْلَى ٱلْجَنَّةِ ». وقد سوى الله تعالى بين من افترى على الله كذبا وبين من كذّب بالحق ؛ فقال تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ) وقال تعالى : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى ٱللهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ)

ومنها الرياء وملاحظة الخلق ، والجهد فى استمالة قلوبهم وصرف وجوههم . والرياء هو الداء العضال الذى يدعو إلى أكبر الكبائر، كما سيأتى فى كتاب الرياء ، والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق ، وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه

---

(١) حديث إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب ـ الحديث : الطبرانى من حديث سلمان باسناد ضعيف

(٢) حديث من ترك المراء وهو مبطل ـ الحديث : الترمذى وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف ، قال الترمذى : حسن

فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة ، سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم : من الخصام المؤدى الى الضرب واللكم واللطم، وتمزيق الثياب ، والأخذ باللحى ، وسب الوالدين وشتم الأستاذين ، والقذف الصريح ، فان أولئك ليسوا معدودين فى زمرة الناس المعتبرين ؛ وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لاينفكون عن هذه الخصال العشر . نعم قد يسلم بعضهم من بعضها ، مع من هو ظاهر الانحطاط عنه ، أو ظاهر الارتفاع عليه ، أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشته ، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له فى الدرجة

ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل، لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها : مثل الأنفة ، والغضب ، والبغضاء ، والطمع، وحب طلب المال والجاه ، للتمكن من الغلبة ، والمباهاة ، والأشر ، والبطر، وتعظيم الأغنياء والسلاطين، والتردد اليهم ، والأخذ من حرامهم ، والتجمل بالخيول والمراكب والثياب المحظورة ، والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء ، والخوض فيما لا يعنى، وكثرة الكلام ، وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب ، واستيلاء الغفلة عليه حتى لايدرى المصلى منهم فى صلاته ما صلى ، وما الذى يقرأ ومن الذى يناجيه ، ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر فى العلوم التى تعين فى المناظرة مع أنها لاتنفع فى الآخرة : من تحسين العبارة ، وتسجيع اللفظ ، وحفظ النوادر ، إلى غير ذلك من أمور لاتحصى . والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم، ولهم درجات شتى، ولا ينفك أعظمهم دينا وأكثرهم عقلا عن جمل من مواد هذه الأخلاق ، وإنما غايته إخفاؤها ومجاهدة النفس بها .

واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة ، وهى لازمة أيضا للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران

وبالجملة هى لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى فى الآخرة . فالعلم لايهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد ، أو يحييه حياة الأبد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَا يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ » فلقد ضره مع أنه لم ينفعه ، وليته نجا منه رأسا برأس ؛ وهيهات هيهات ! فخطر العلم عظيم ، وطالبه طالب الملك المؤيد والنعيم السرمد ، فلا

ينفك عن المُلك أو الهُلك ، وهو كطالب الملك فى الدنيا ، فان لم يتفق له الإصابة فى الأموال لم يطمع فى السلامة من الإذلال ، بل لا بد من لزوم أفضح الأحوال

فان قلت : فى الرخصة فى المناظرة فائدة وهى ترغيب الناس فى طلب العلم ، إذ لولا حب الرياسة لاندرست العلوم . فقد صدقتَ فيما ذكرتَه من وجه ، ولكنه غير مفيد ، إذ لولا الوعد بالكرة والصولجان واللعب بالعصافير ما رغب الصبيان فى المكتب ، وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة ، ولولا حب الرياسة لاندرس العلم ، ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج ، بل هو من الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم (١) « إِنَّ ٱللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا ٱلدِّينَ بِأَقْوامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ » . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ ٱللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا ٱلدِّينَ بِٱلرَّجُلِ ٱلْفَاجِرِ » . فطالب الرياسة فى نفسه هالك ، وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا ، وذلك فيمن كان ظاهر حاله فى ظاهر الأمر ظاهرَ حال علماء السلف ، ولكنه يضمر قصد الجاه . فمثاله مثال الشمع الذى يحترق فى نفسه ويستضىء به غيره ؛ فصلاح غيره فى هلاكه . فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التى تأكل نفسها وغيرها

فالعلماء ثلاثة : إما مهلك نفسه وغيره ، وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها ؛ وإما مسعد نفسه وغيره ، وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهرا وباطنا ؛ وإما مهلك نفسه مسعد غيره ، وهو الذى يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا فى ظاهره وقصدُه فى الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه . فانظر من أى الأقسام أنت ، ومن الذى اشتغلت بالاعتداد له ؛ فلا تظنن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل . وسيأتيك فى كتاب الرياء بل فى جميع ربع المهلكات ماينفى عنك الريبة فيه ، إن شاء الله تعالى

---

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم : النسائي من حديث أنس باسناد صحيح

(٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر : متفق عليه من حديث أبي هريرة

الباب الخامس

فى آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة، ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الأولى- تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف؛ إذ العلم عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى. وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف. قال صلى الله عليه وسلم (١) «بُنِيَ الدِّينُ عَلَى النَّظَافَةِ» وهو كذلك باطنا وظاهرا؛ قال الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) تنبيها للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر المدركة بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر، أى باطنه ملطخ بالخبائث. والنجاسة عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب، فانها مع خبثها فى الحال مهلكات فى المآل؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «لَا تَدْخُلُ (١) الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ» والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم؛ والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد، والحسد والكبر والعجب، وأخواتها، كلاب نابحة؛ فأنّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى فى القلب إلا بواسطة الملائكة؟ (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى

﴿الباب الخامس﴾

(١) حديث بنى الدين على النظافة: لم أجده هكذا. وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة: تنظفوا فان الاسلام نظيف. وللطبرانى فى الاوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود: النظافة تدعو الى الايمان

(٢) حديث لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب: متفق عليه من حديث أبي طلحة الانصارى

القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها ، وهم المقدسون المطهرون المبرءون من الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيبا ،ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبا طاهرا .
ولست أقول: المراد بلفظ البيت هو القلب ، وبالكلب هو الغضب والصفات المذمومة، ولكنى أقول: هو تنبيه عليه. وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر. ففارق الباطنية بهذه الدقيقة، فان هذه طريق الاعتبار، وهو مسلك العلماء والأبرار، إذ معنى الاعتبار أن يعبر ماذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه، كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة : بأن يعبر منها الى التنبه لكونه أيضا عرضة للمصائب؛ وكون الدنيا بصدد الانقلاب ؛ فعبوره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محمودة . فاعبر أنت أيضا من البيت الذى هو بناء الخلق ، الى القلب الذى هو بيت من بناء الله تعالى ؛ ومن الكلب الذى ذم لصفته لا لصورته وهو مافيه من سبعية ونجاسة ، الى الروح الكلبية وهى السبعية

واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره الى الدنيا والتكالب عليها والحرص على التمزيق لأعراض الناس ، كلب في المعنى ، وقلب فى الصورة ، فنور البصيرة يلاحظ المعانى لا الصور ؛ والصور فى هذا العالم غالبة على المعانى ، والمعانى باطنة فيها ، وفى الآخرة تتبع الصور المعانى ، وتغلب المعانى، فلذلك يحشر كل شخص على صورته المعنوية، فيحشر الممزق(١) لأعراض الناس كلبا ضاريا، والشره إلى أموالهم ذئبا عاديا ، والمتكبر عليهم فى صورة نمر، وطالب الرياسة فى صورة أسد . وقد وردت بذلك الأخبار ، وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار

فان قلت : كم من طالب ردىء الأخلاق حصل العلوم . فهيهات ماأبعده عن العلم الحقيقى النافع فى الآخرة الجالب للسعادة ! فان من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصى سموم قاتلة مهلكة . وهل رأيت من يتناول سما مع علمه بكونه سما قاتلا ؟ إنما الذى تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ، ويرددونه بقلوبهم أخرى ، وليس ذلك من العلم فى شىء ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف فى القلب. وقال بعضهم:

---

(١) حديث حشر الممزق لأعراض الناس فى صورة كلب ضار ـ الحديث : الثعلبى فى التفسير من حديث البراء بسند ضعيف

إنما العلم الخشية لقوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم . ولذلك قال بعض المحققين : معنى قولهم : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله ، أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته ، وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه

فان قلت : إنى أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين برّزوا فى الفروع والأصول، وعُدوا من جملة الفحول ، وأخلاقُهم ذميمة لم يتطهروا منها . فيقال : إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن مااشتغلوا به قليل الغَنَاء من حيث كونه علما ، وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى اذا قصد به التقرب الى الله تعالى . وقد سبقت الى هذا إشارة ، وسيأتيك فيه مزيد بيان وإيضاح ، إن شاء الله تعالى

الوظيفة الثانية — أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، ويبعد عن الأهل والوطن ، فان العلائق شاغلة وصارفة ، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ، ولذلك قيل : العلم لايعطيك بعضه حتى تعطيه كلك . فاذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر . والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه، واختطف الهواء بعضه، فلايبقى منه مايجتمع ويبلغ المزدرع

الوظيفة الثالثة — أن لايتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقى اليه زمام أمره بالكلية فى كل تفصيل ، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغى أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته ، قال الشعبي : صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت اليه بغلته ليركبها ، فجاء ابن عباس [1] فأخذ بركابه ، فقال زيد : خلّ عنه يابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء ، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم. وقال صلى الله عليه وسلم [2] « لَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِ التَّمَلُّقُ إِلَّا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ » . فلا ينبغى لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ، ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة

---

(١) حديث أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت وقوله هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء : الطبرانى والحاكم والبيهقي فى المدخل الا أنهم قالوا : هكذا نفعل. قال الحاكم صحيح الاسناد على شرط مسلم

(٢) حديث ليس من أخلاق المؤمن الملق الا في طلب العلم: ابن عدى من حديث معاذ وأبى أمامة باسنادين ضعيفين

إلا من المرموقين المشهورين، وهو عين الحماقة . فان العلم سبب النجاة والسعادة . ومن يطلب مهربا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده الى الهرب مشهور أو خامل ، وضراوة سباع النار بالجهال بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع . فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ، ويتقلد المنة لمن ساقها اليه كائنا من كان ، فلذلك قيل :

العلم حرب للفتى المتعالى كالسيل حرب للمكان العالى

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع . قال الله تعالى : (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) . ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهماً ثم لاتعينه القدرة على الفهم حتى يلقى السمع وهو شهيد حاضر القلب ، ليستقبل كل ماألقى اليه بحسن الاصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة . فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة نالت مطرا غزيرا فتشربت جميع أجزائها ، وأذعنت بالكلية لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق فى التعلم فليقلده وليدع رأيه ، فان خطأ مرشده أنفع له من صوابه فى نفسه ، إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها ، فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب فى بعض أوقاته بالحرارة ليزيد فى قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج، فيعجب منه من لاخبرة له به. وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر : (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال : (فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) ثم لم يصبر ولم يزل فى مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران . فان قلت : فقد قال الله تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ) فالسؤال مأمور به

فاعلم أنه كذلك ، ولكن فيما يأذن المعلم فى السؤال عنه ، فان السؤال عما لم تبلغ مرتبتك الى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال ، أى دع السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له ، وبأوان الكشف ، ومالم يدخل أوان الكشف فى كل درجة من مراقى الدرجات لايدخل أوان السؤال عنه . وقد قال على رضى الله عنه : إن من حق العالم

أن لاتكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته فى الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشى له سرا ، ولا تغتابن أحدا عنده ، ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته

الوظيفة الرابعة — أن يحترز الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو علوم الآخرة ، فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ويؤيسه عن الادراك والاطلاع ، بل ينبغى أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ، ثم بعد ذلك يصغى الى المذاهب والشبه ، وإن لم يكن أستاذه مستقلا باختيار رأى واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها ، فليحذر منه ، فان إضلاله أكثر من إرشاده ، فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ، ومن هذا حاله يعد فى عمى الحيرة وتيه الجهل . ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهى منع الحديث العهد بالاسلام عن مخالطة الكفار ، وندب القوى إلى النظر فى الاختلافات يضاهي حث القوى على مخالطة الكفار . ولهذا يمنع الجبان عن التهجم على صف الكفار ، ويندب الشجاع له . ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ، ولم يدر أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء . وفى ذلك قال بعضهم : من رآنى فى البداية صار صديقا ، ومن رآنى فى النهاية صار زنديقا ، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن ، وتسكن الجوارح إلا عن رواتب الفرائض، فيتراءى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال، وهيهات . فذلك مرابطة القلب فى عين الشهود والحضور، وملازمة الذكر الذى هو أفضل الأعمال على الدوام . وتشبه الضعيف بالقوى فيما يرى من ظاهره أنه هفوة يضاهى اعتذار من يلقى نجاسة يسيرة فى كوز ماء ، ويتعلل بأن أضعاف هذه النجاسة قد يلقى فى البحر والبحر أعظم من الكوز ، فما جاز للبحر فهو للكوز أجوز . ولا يدرى المسكين أن البحر بقوته يحيل النجاسة ماء فتنقلب عين النجاسة باستيلائه إلى صفته ، والقليل من النجاسة يغلب على الكوز ويحيله إلى صفته . ولمثل هذا جوز للنبي صلى الله عليه وسلم مالم يجوّز لغيره (١) «حَتَّى أُبِيحَ لَهُ تِسْعُ نِسْوَةٍ»

---

(١) حديث أبيح له صلى الله عليه وسلم تسع نسوة ، وهو معروف. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس : كان عند النبى صلى الله عليه وسلم تسع — الحديث

إذ كان له من القوة مايتعدى منه صفة العدل إلى نسائه وإن كثرن . وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى مابينهن من الضرار اليه ، حتى ينجر إلى معصية الله تعالى فى طلبه رضاهن، فما أفلح من قاس الملائكة بالحدادين

الوظيفة الخامسة — أن لايدع طالب العلم فنًّا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه، وتطرف من البقية ، فان العلوم متعاونة ، وبعضها مرتبط ببعض، ويستفيد منه فى الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله ، فان الناس أعداء ماجهلوا ؛ قال تعالى « وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » . قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض * يجدْ مُرا به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى، أو معينة على السلوك نوعا من الإعانة. ولها منازل مرتبة فى القرب والبعد من المقصود ، والقُوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ، ولكل واحد رتبة ، وله بحسب درجته أجر فى الآخرة اذا قصد به وجه الله تعالى

الوظيفة السادسة — أن لايخوض فى فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعى الترتيب، ويبتدىء بالأهم ، فان العمر اذا كان لايتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه، ويكتفى منه بشمه ، ويصرف جمام قوته فى الميسور من علمه الى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة ، أعنى قسمى المعاملة والمكاشفة ، فغاية المعاملة المكاشفة ، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى . ولست أعنى به الاعتقاد الذى يتلقفه العامى وراثة أو تلقفا ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة فى تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى فى قلب عبد طهّر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهى إلى رتبة إيمان أبى بكر رضى الله عنه (١) الذي « لَوْ وُزِنَ بِإِيمَانِ الْعَالَمِينَ لَرَجَحَ » كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم ، فما عندى أن مايعتقده العامى ويرتبه المتكلم الذى لايزيد على العامى إلا فى صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته كلاما ، وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلى

---

(١) حديث لو وزن ايمان أبى بكر بايمان العالمين لرجح : ابن عدى من حديث ابن عمر باسناد ضعيف ورواه البيهقى فى الشعب موقوفا على عمر باسناد صحيح

وسائر الصحابة رضى الله عنهم ، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذى وقر فى صدره . والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه ثم يزدرى مايسمعه على وفقه ، ويزعم أنه من ترهات الصوفية ، وأن ذلك غير معقول ، فينبغى أن تتئد فى هذا فعنده ضيعت رأس المال ، فكن حريصا على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ، ولا يرشدك اليه إلا حرصك فى الطلب

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل ، وهو بحر لايدرك منتهى غوره . وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الذين يلونهم . وقد روى أنه رئى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين فى مسجد وفى يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء ، وفى يد الآخر : كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب .

الوظيفة السابعة — أن لايخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فان العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا ، وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج ، قال الله تعالى : (ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) أى لايجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا . وليكن قصده فى كل علم يتحراه الترقى إلى ماهو فوقه ، فينبغى أن لايحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ، ولا بخطأ واحد أو آحاد فيه ، ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل ، فترى جماعة تركوا النظر فى العقليات والفقهيات متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها ، وقد مضى كشف هذه الشبه فى كتاب معيار العلم . وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفق لواحد ، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفق لآخر ، والكل خطأ ، بل ينبغى أن يعرف الشيء فى نفسه . فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص . ولذلك قال على رضى الله عنه : لاتعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله

الوظيفة الثامنة ـ أن يعرف السبب الذى به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيئان : أحدهما شرف الثمرة ، والثانى وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب ، فان ثمرة أحدهما الحياة الأبدية ، وثمرة الآخر الحياة الفانية ، فيكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم ، فان علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها ، وإن نسب الحساب إلى الطب كان

الطب أشرف باعتبار ثمرته ، والحساب أشرف باعتبار أدلته ، وملاحظة الثمرة أولى ، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين . وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله ، والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم . فإياك وأن ترغب إلا فيه ، وأن تحرص إلا عليه

الوظيفة التاسعة ـ أن يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفى المآل القرب من الله سبحانه والترقى إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران ، وإذا كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة . ومع هذا فلا ينبغى له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم ، أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة ، وغير ذلك مما أوردناه فى المقدمات والمتممات من ضروب العلوم التى هى فرض كفاية . ولا تفهمن من غلونا فى الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم ، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين فى سبيل الله ، فمنهم المقاتل ، ومنهم الردء ، ومنهم الذى يسقيهم الماء ، ومنهم الذى يحفظ دوابهم ويتعهدهم . ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم ، فكذلك العلماء ، قال الله تعالى : (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) . وقال تعالى : (هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ) . والفضيلة نسبية ، واستحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لايدل على حقارتهم اذا قيسوا بالكناسين . فلا تظنن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر ، بل الرتبة العليا للأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم العلماء الراسخين فى العلم ، ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم . وبالجملة من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ومن قصد الله تعالى بالعلم أىّ علم كان ، نفعه ، ورفعه لامحالة

الوظيفة العاشرة ـ أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد ، كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد ، والمهم على غيره . ومعنى المهم مايهمك ، ولا يهمك إلا شأنك فى الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر مايجرى مجرى العيان ، فالأهم مايبقى أبد الآباد ؛ وعند ذلك تصير الدنيا منزلا ، والبدن مركبا ، والأعمال سعيا إلى المقصد . ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ، ففيه النعيم كله ، وإن كان لا يَعرف فى هذا العالم قدره

إلا الأقلون . والعلوم بالاضافة إلى سعادة لقاء اللهسبحانه والنظر إلى وجهه الكريم ،أعنى النظر الذى طلبه الأنبياء وفهموه دون مايسبق إلى فهم العوام والمتكلمين، على ثلاث مراتب ، تفهمها بالموازنة بمثال: وهو أن العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك بالحج وقيل له : إن حججت وأتممت وصلت إلى العتق والملك جميعا ، وإن ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعافك فى الطريق مانع ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك، فله ثلاثة أصناف من الشغل : (الأول)تهيئة الأسباب بشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة. و(الثانى) السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلا بعد منزل . و(الثالث) الاشتغال بأعمال الحج ركنا بعد ركن ، ثم بعد الفراغ والنزوع عن هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق التعرض للملك والسلطنة . وله فى كل مقام منازل ، من أول إعداد الأسباب إلى آخره ، ومن أول سلوك البوادى إلى آخره ، ومن أول أركان الحج الى آخره . وليس قرب من ابتدأ بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد فى إعداد الزاد والراحلة ، ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك ، بل هو أقرب منه . فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام : قسم يجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة ، وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن فى الدنيا . وقسم يجرى مجرى سلوك البوادى وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التى عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين ، فهذا سلوك الطريق ، وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله . وكما لايغنى علم المنازل وطرق البوادى دون سلوكها ، كذلك لايغنى علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ، ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن .وقسم ثالث يجرى مجرى نفس الحج وأركانه ، وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ماذكرناه فى تراجم علم المكاشفة ، وهاهنا نجاة وفوز بالسعادة ، والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة . وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى ، وهم المقربون المنعمون فى جوار الله تعالى بالرَّوْح والريحان وجنة النعيم . وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة ، كما قال الله عز وجل : (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ) . وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له ، أو انتهض إلى جهته

لا على قصد الامتثال والعبودية بل لغرض عاجل، فهو من أصحاب الشمال، ومن الضالين، فله نُزُل من حميم وتصلية جحيم

واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين، أعنى أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هى أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار، وترقوا فيه عن حد التقليد لمجرد السماع، وحالهم حال من أخبر فصدّق، ثم شاهد فحقق، وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والايمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان. فالسعادة وراء علم المكاشفة، وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التى هى سلوك طريق الآخرة. وقطع عقبات الصفات وسلوك طريق محو الصفات المذمومة وراء علم الصفات. وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك فى ذلك وراء علم سلامة البدن: ومساعدة أسباب الصحة وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذى يتوصل به إلى الملبس والمطعم والمسكن، وهو منوط بالسلطان، وقانونه فى ضبط الناس على منهج العدل والسياسة فى ناصية الفقيه. وأما أسباب الصحة ففى ناصية الطبيب. ومن قال: العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، وأشار به الى الفقه، أراد به العلوم الظاهرة الشائعة لا العلوم العزيزة الباطنة

فان قلت: لم شبهت علم الطب والفقه باعداد الزاد والراحلة؟

فاعلم أن الساعى إلى الله تعالى لينال قربه هو القلب دون البدن، ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس، بل هو سر من أسرار الله عز وجل لايدركه الحس، ولطيفة من لطائفه تارة يعبر عنه بالروح، وتارة بالنفس المطمئنة. والشرع يعبر عنه بالقلب لأنه المطية الأولى لذلك السر، وبواسطته صار جميع البدن مطية وآلة لتلك اللطيفة. وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة، وهو مضنون به بل لارخصة فى ذكره. وغاية المأذون فيه أن يقال: هو جوهر نفيس ودر عزيز أشرف من هذه الأجرام المرئية، وإنما هو أمر إلهى، كما قال تعالى: « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى، ولكن نسبته أشرف من نسبة سائر أعضاء البدن، فلله الخلق والأمر جميعا، والأمر أعلى من الخلق، وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملنها وأشفقن منها، من عالم الأمر. ولا يفهم من هذا أنه تعريض بقدمها، فان القائل بقدم الأرواح مغرور جاهل لايدرى مايقول. فلنقبض عنان البيان عن هذا الفن، فهو وراء مانحن

بصدده . والمقصود أن هذه اللطيفة هى الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب ، فمنه مصدرها، واليه مرجعها. وأما البدن فمطيتها التى تركبها وتسعى بواسطتها. فالبدن لها فى طريق الله تعالى كالناقة للبدن فى طريق الحج ، وكالراوية الخازنة للماء الذى يفتقر اليه البدن ، فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطية ، ولا يخفى أن الطب كذلك، فانه قد يحتاج اليه فى حفظ الصحة على البدن ، ولو كان الانسان وحده لاحتاج اليه ،والفقه يفارقه فى أنه لو كان الانسان وحده ربما كان يستغنى عنه، ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده ،إذ لا يستقل بالسعى وحده فى تحصيل طعامه ، بالحراثة والزرع والخبز والطبخ، وفى تحصيل الملبس والمسكن، وفى إعداد آلات ذلك كله ، فاضطر إلى المخالطة والاستعانة ، ومهما اختلط الناس وثارت شهواتهم تجاذبوا أسباب الشهوات ، وتنازعوا وتقاتلوا ، وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج ، كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاط من داخل ، وبالطب يحفظ الاعتدال فى الأخلاط المتنازعة من داخل ، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال فى التنافس من خارج ، وعلم طريق اعتدال الأخلاط طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس فى المعاملات والأفعال فقه ، وكل ذلك لحفظ البدن الذى هو مطية . فالمتجرد لعلم الفقه أو الطب اذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه كالمتجرد لشراء الناقة وعلفها وشراء الراوية وخرزها اذا لم يسلك بادية الحج ، والمستغرق عمره فى دقائق الكلمات التى تجرى فى مجادلات الفقه كالمستغرق عمره فى دقائق الأسباب التى بها تستحكم الخيوط التى تخرز بها الراوية للحج . ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك الى سالكى طريق الحج أو ملابسى أركانه . فتأمل هذا أولاً ، واقبل النصيحة مجانًا ممن قام عليه ذلك غالبا ولم يصل اليه إلا بعد جهد جهيد ، وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة ، فى النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة . فهذا القدر كاف فى وظائف المتعلم

بيان وظائف المرشد المعلم

اعلم أن للانسان فى علمه أربعة أحوال، كحاله فى اقتناء الأموال : اذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال ، وحال إنفاق على نفسه

فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا ، وهو أشرف أحواله . فكذلك العلم يقتنى كما يقتنى المال ، فله حال طلب واكتساب ، وحال تحصيل يغنى عن السؤال ، وحال استبصار وهو التفكر فى المحصّل والتمتع به ، وحال تبصير وهو أشرف الأحوال . فمن علم وعمل وعلّم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السموات ، فانه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها ، وكالمسك الذى يطيّب غيره وهو طيب . والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم ، وكالمسن الذى يشحذ غيره ولا يقطع ، والإبرة التى تكسو غيرها وهى عارية ، وذبالة المصباح تضىء لغيرها وهى تحترق ، كما قيل :

ماهو إلا ذبالة وقدت * تضىء للناس وهى تحترق

ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما ، فليحفظ آدابه ووظائفه

الوظيفة الأولى ـ الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مُجرى بنيه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ » بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة ، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فان الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، ولولا المعلم لانساق ماحصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم ، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة ، أعنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا ، فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك ، نعوذ بالله منه . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد ، ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ، ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا ، فان العلماء وأبناء الآخرة مسافرون الى الله تعالى ، وسالكون اليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق ، والترافق فى الطريق بين المسافرين الى الأمصار سبب التواد والتحاب ، فكيف السفر الى الفردوس الأعلى والترافق فى طريقه ولا ضيق فى سعادة الآخرة ؟ فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ، ولا سعة فى سعادات الدنيا ، فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم .

---

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده : أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان من حديث أبى هريرة

والعادلون الى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وداخلون فى مقتضى قوله تعالى : (ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ)

الوظيفة الثانية ـ أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً ، بل يعلّم لوجه الله تعالى وطلبا للتقرب اليه ؛ ولا يرى لنفسه منّة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذى يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منة وثوابك فى التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ، ولولا المتعلم مانلت هذا الثواب ؟ فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى ، كما قال عز وجل : (وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ) فان المال وما فى الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم هو العلم ، إذ به شرف النفس ؛ فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوما ، وذلك هو الانتكاس على أم الراس . ومثله هو الذى يقوم فى العرض الأكبر مع المجرمين ناكسى رءوسهم عند ربهم . وعلى الجملة فالفضل والمنة للمعلم . فانظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يزعمون أن مقصودهم التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والكلام والتدريس فيهما وفى غيرهما ، فانهم يبذلون المال والجاه و يتحملون أصناف الذل فى خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات ، ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف اليهم ، ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له فى كل نائبة ، وينصر وليه ، ويعادى عدوه ، وينتهض جهارا له فى حاجاته ، ومسخرا بين يديه فى أوطاره ، فان قصّر فى حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه ، فأخسِسْ بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ، ثم لايستحيي من أن يقول: غرضى من التدريس نشر العلم تقربا الى الله تعالى ونصرة لدينه ! فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات .

الوظيفة الثالثة ـــ أن لايدع من نصح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك فى نفسه بأقصى

مايمكن، فليس مايصلحه العالم الفاجر بأكثر ممايفسده ، فانْ علم من باطنه أنه لايطلب العلم إلا للدنيا نظر الى العلم الذى يطلبه : فان كان هو علم الخلاف فى الفقه والجدل فى الكلام والفتاوى فى الخصومات والأحكام ، فيمنعه من ذلك ، فان هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التى قيل فيها : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله ، وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث ، وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها ، فاذا تعامه الطالب وقصد به الدنيا فلا بأس أن يتركه ، فانه يثمر له طمعا فى الوعظ والاستتباع ، ولكن قد يتنبه فى أثناء الأمر أو آخره ، إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة ، وذلك يوشك أن يؤدى الى الصواب فى الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره ، ويجرى حب القبول والجاه مجرى الحب الذى ينثر حوالى الفخ ليقتنص به الطير ، وقد فعل الله ذلك بعباده ، إذ جعل الشهوة ليصل الخلق بها الى بقاء النسل ، وخلق أيضا حب الجاه ليكون سببا لإحياء العلوم . وهذا متوقع فى هذه العلوم

فأما الخلافيات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة فلا يزيد التجرد لهما مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة فى القلب ، وغفلة عن الله تعالى ، وتماديا فى الضلال ، وطلبا للجاه ، إلا من تداركه الله تعالى برحمته ، أو مزج به غيره من العلوم الدينية ، ولا برهان على هذا كالتجربة والمشاهدة . فانظر واعتبر ، واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك فى العباد والبلاد ، والله المستعان . وقد رئى سفيان الثورى رحمه الله حزينا ، فقيل له : مالك ؟ فقال : صرنا متجراً لأبناء الدنيا ، يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضيا أو عاملا أو قهرمانا

الوظيفة الرابعة وهى من دقائق صناعة التعليم ــ أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ماأمكن ، ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم (١) « لَوْ مُنِعَ النَّاسُ عَنْ فَتِّ الْبَعْرِ لَفَتُّوهُ وَقَالُوا مَانُهِينَا عَنْهُ إِلاَّ وَفِيهِ شَيْءٌ » ! وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نهيا عنه ، فما ذكرت القصة معك لتكون سمرا ، بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ، ولأن التعريض أيضا يميل

(١) حديث لو منع الناس عن فت البعر لفتوه ــ الحديث: لم أجده

النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة فى العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته

الوظيفة الخامسة ـ أن المتكفل ببعض العلوم ينبغى أن لا يقبّح فى نفس المتعلم العلوم التى وراءه كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ، ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفّر عن الفقه ويقول : ذلك فروع وهو كلام فى حيض النسوان ، فأين ذلك من الكلام فى صفة الرحمن . فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغى أن تجتنب ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره ؛ وإن كان متكفلا بعلوم فينبغى أن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة

الوظيفة السادسة ـ أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى اليه ما لا يبلغه عقله ، فينفره أو يخبط عليه عقله ، اقتداء فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : (١) « نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاء أُمِرْنَا أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ وَنُكَلِّمَهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ » . فليبثّ اليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَا أَحَدٌ يُحَدِّثُ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَىٰ بَعْضِهِمْ » . وقال على رضى الله عنه وأشار إلى صدره : إن هاهنا لعلوما جمّة لو وجدت لها حملة . وصدق رضى الله عنه ، فقلوب الأبرار قبور الأسرار ، فلا ينبغى أن يفشى العالم كل مايعلم إلى كل أحد . هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به ، فكيف فيما لا يفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : لا تعلقوا الجواهر فى أعناق الخنازير ، فان الحكمة خير من الجوهر ، ومن كرهها فهو شر من الخنازير . ولذلك قيل : كِلْ لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار . وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب ، فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) قال : « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا نَافِعًا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » !

---

(١) حديث نحن معاشر الانبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ـ الحديث : رويناه فى جزء من حديث أبى بكر ابن الشخير من حديث عمر أخصر منه ، وعند أبى داود من حديث عائشة : انزلوا الناس منازلهم

(٢) حديث من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار : ابن ماجه من حديث أبى سعيد باسناد ضعيف ، وتقدم حديث أبى هريرة بنحوه

فقال : اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمني، فقد قال الله تعالى : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ) تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع المستحق :

أأنثر درّاً بين سارحة النَّعم فأصبح مخزونا براعية الغنم
لأنهم أمسوا بجهل لقدره فلا أنا أضحى أن أطوقه البهم
فان لَطف الله اللطيف بلطفه وصادفتُ أهلا للعلوم وللحكم
نشرت مفيدا واستفدت مودة وإلا فمخزون لدىّ ومكتتم
فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

الوظيفة السابعة — أن المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى اليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه ، فان ذلك يفتر رغبته فى الجلىّ ، ويشوّش عليه قلبه ، ويوهم اليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق ، فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه فى كمال عقله ، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله . وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ، ورسخ فى نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل ، وحسن مع ذلك سريرته ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك ، فلا ينبغى أن يشوّش عليه اعتقاده ، بل ينبغي أن يخلى وحرفته ، فانه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحلّ عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص ، فيرتفع عنه السد الذى بينه وبين المعاصى ، وينقلب شيطانا مريدا يهلك نفسه وغيره ، بل لا ينبغى أن يخاض مع العوام فى حقائق العلوم الدقيقة ، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات ، وتعليم الأمانة فى الصناعات التى هم بصددها ، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة فى الجنة والنار ، كما نطق به القرآن ، ولا يحرك عليهم شبهة ، فانه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك . وبالجملة لا ينبغى أن يفتح للعوام باب البحث ، فانه يعطل عليهم صناعاتهم التى بها قوام الخلق ، ودوام عيش الخواص

الوظيفة الثامنة — أن يكون المعلم عاملا بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر ، فاذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فانه سم مهلك ، سخر الناس به واتهموه ، وزاد

حرصهم على مانهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به . ومَثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بمالا نقش فيه ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ؟! ولذلك قيل فى المعنى :

لاتنهَ عن خُلق وتأتىَ مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) . ولذلك كان وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل، إذ يزل بزَلته عالَم كثير، ويقتدون به، و«مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا» ، ولذلك قال على رضى الله عنه : قَصَم ظهرى رجلان : عالمٌ متهتك ، وجاهل متنسّك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه . والله أعلم

الباب السادس

فى آفات العلم

وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ماورد من فضائل العلم والعلماء ، وقد ورد فى العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشدّ الخلق عذابا يوم القيامة ، فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، ونعنى بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصْدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها ، قال صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال [(١)] « لَايَكُونُ الْمَرْءُ عَالِمًا حَتَّى يَكُونَ بِعِلْمِهِ عَامِلًا » . وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] «الْعِلْمُ عِلْمَانِ : عِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ، فَذَلِكَ حُجَّةُ

﴿ الباب السادس ﴾

(١) حديث لايكون المرء عالما حتى يكون بعلمه عاملا : ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء ، والبيهقى فى المدخل موقوفا على أبى الدرداء ، ولم أجده مرفوعا

(٢) حديث العلم علمان علم على اللسان ـ الحديث : الترمذى الحكيم فى النوادر، وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلا باسناد صحيح ، وأسنده الخطيب فى التاريخ من رواية الحسن عن جابر باسناد جيد ، وأعله ابن الجوزى

اللهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ ؛ وَعِلْمٌ فِي الْقَلْبِ فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ » . وقال صلى الله عليه وسلم (١) « يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ عُبَّادٌ جُهَّالٌ وَعُلَمَاءُ فُسَّاقٌ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « لَا تَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلِتَصْرِفُوا بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ » . وقال صلى الله عليه وسلم: « مَنْ كَتَمَ عِلْمًا عِنْدَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « لَأَنَا مِنْ غَيْرِ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّجَّالِ » فقيل: وما ذلك؟ فقال : « مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « مَنِ ازْدَادَ عِلْمًا وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا » . وقال عيسى عليه السلام: إلى متى تصفون الطريق للمدلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين !

فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم ، فان العالم إما متعرض لهلاك الأبد ، أو لسعادة الأبد ، وإنه بالخوض في العلم قد حُرِم السلامة إن لم يدرك السعادة

وأما الآثار ، فقد قال عمر رضي الله عنه : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم . قالوا : وكيف يكون منافقا عليما ؟ قال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل . وقال الحسن رحمه الله : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ، ويجري في العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه ، فقال : كفى بترك العلم إضاعة له . وقيل لابراهيم بن عيينة : أي الناس أطول ندما ؟ قال : أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره ، وأما عند الموت فعالم مفرط . وقال الخليل بن أحمد : الرجال

---

(١) حديث يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فسقة : الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف

(٢) حديث لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ـ الحديث : ابن ماجه من حديث جابر باسناد صحيح

(٣) حديث غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ـ الحديث : أحمد من حديث أبي ذر باسناد جيد

(٤) حديث من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وحديث علي باسناد ضعيف إلا أنه قال : زهدا . وروى ابن حبان في روضة العقلاء موقوفا على الحسن : من ازداد علما ثم ازداد على الدنيا حرصا لم يزدد من الله إلا بعدا . وروى أبو الفتح الازدي في الضعفاء من حديث علي من ازداد بالله علما ثم ازداد للدنيا حبا ازداد الله عليه غضبا

أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاتبعوه ، ورجل يدرى ولايدرى أنه يدرى، فذلك نائم فأيقظوه ، ورجل لايدرى ويدرى أنه لايدرى، فذلك مسترشد فأرشدوه ، ورجل لايدرى ولايدرى أنه لايدرى ، فذلك جاهل فارفضوه. وقال سفيان الثورى رحمه الله : يهتف العلم بالعمل فان أجابه وإلا ارتحل. وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : إنى لأرحم ثلاثة : عزيزَ قوم ذل ، وغنى قوم افتقر ، وعالما تلعب به الدنيا. وقال الحسن :عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... ومن يشترى دنياه بالدين أعجب

وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وقال صلى الله عليه وسلم: (١) «إِنَّ الْعَالِمَ لَيُعَذَّبُ عَذَابًا يَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ اسْتِعْظَامًا لِشِدَّةِ عَذَابِهِ» أراد به العالم الفاجر. وقال أسامة بن زيد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (٢) : «يُؤْتَى بِالْعَالِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَالَكَ ؟ فَيَقُولُ : كُنْتُ آمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا آتِيهِ ، وَأَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ» . وإنما يضاعف عذاب العالم فى معصيته لأنه عصى عن علم . ولذلك قال الله عز وجل : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) لأنهم جحدوا بعد العلم، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ماجعلوا لله سبحانه ولداً ولا قالوا إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة ، إذ قال الله : (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) وقال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ،فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) . وقال تعالى فى قصة بلعام بن باعوراء : (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

---

(١) حديث إن العالم يعذب عذابا يطيف به أهل النار ـ الحديث : لم أجده بهذا اللفظ ، وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده

(٢) حديث أسامة بن زيد : يؤتى بالعالم يوم القيامة ويلقى فى النار فتندلق أقتابه ـ الحديث : متفق عليه بلفظ ارجل بدل العالم

حتى قال : (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ) فكذلك العالم الفاجر، فان بلعام أوتى كتاب الله تعالى فأخلد إلى الشهوات ، فشبه بالكلب ، أى سواء أوتى الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث إلى الشهوات

وقال عيسى عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص الى الزرع . ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى

فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخس حالا وأشد عذابا من الجاهل ؛ وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة ، ولهم علامات :

فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه ، فان أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ، ويعلم أنهما متضادتان ، وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وأنهما ككفتى الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى ، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر ، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ ؛ فبقدر ما تصب منه فى الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر ؛ فان من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها ، فهو فاسد العقل ، فان المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك ، فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الايمان ، فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ؟ ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة ، وأن الجمع بينهما طمع فى غير مطمع ، فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم ، بل هو كافر بالقرءان كله من أوله الى آخره ، فكيف يعد من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته ، فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته؟

وفى أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى : إن أدنى ما أصنع بالعالم اذا آثر شهوته على محبتى أن أحرمه لذيذ مناجاتى . ياداود لا تسأل عنى عالما قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتى ، أولئك قطاع الطريق على عبادي . ياداود اذا رأيت لى طالبا فكن له خادما .

يا داود من رد إلىّ هاربا كتبته جهبذا ، ومن كتبته جهبذا لم أعذبه أبداً ». ولذلك قال الحسن رحمه الله : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . ولذلك قال يحيى بن معاذ : إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا . وقال سعيد بن المسيّب رحمه الله : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص . وقال عمر رضى الله عنه : إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم ، فان كل محب يخوض فيما أحب . وقال مالك بن دينار رحمه الله : قرأت فى بعض الكتب السالفة أن الله تعالى يقول : إن أهون ماأصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتى من قلبه . وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علما فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم فى نور علمهم . وكان يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله يقول لعلماء الدنيا : ياأصحاب العلم قصوركم قيصرية ، وبيوتكم كسروية وأثوابكم ظاهرية ، وأخفافكم جالوتية ، ومراكبكم قارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآثمكم جاهلية ، ومذاهبكم شيطانية ، فأين الشريعة المحمدية ! قال الشاعر :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها ... فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقال آخر :

يامعشر القراء ياملح البلد ... مايصلح الملح إذا الملح فسد !

وقيل لبعض العارفين : أترى ان من تكون المعاصي قرة عينه لايعرف الله ؟ فقال : لاأشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة أنه لايعرف الله تعالى . وهذا دون ذلك بكثير . ولاتظنن أن ترك المال يكفى فى اللحوق بعلماء الآخرة ، فان الجاه أضر من المال . ولذلك قال بشر : حدّثنا باب من أبواب الدنيا ، فاذا سمعت الرجل يقول حدثنا فانما يقول أوسعوا لى . ودفن بشر بن الحارث بضعة عشر مابين قمطرة وقوصرة من الكتب، وكان يقول أنا أشتهى أن أحدث ، ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحدثت . وقال هو وغيره : إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت ، فاذا لم تشته فحدث . وهذا لأن التلذذ بجاه الافادة ومنصب الارشاد أعظم لذة من كل تنعم فى الدنيا ، فمن أجاب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا . ولذلك قال الثورى : فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد ، وكيف لاتخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)

وقال سهل رحمه الله : العلم كله دنيا ، والآخرة منه العمل به ، والعمل كله هباء إلا الاخلاص : وقال الناس كلهم موتى إلا العلماء ، والعلماء سكارى إلا العاملين ، والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين ، والمخلص على وجل حتى يدرى ماذا يختم له به. وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر فى طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا. و إنما أراد به طلب الأسانيد العالية ، أو طلب الحديث الذي لا يحتاج اليه فى طلب الآخرة . وقال عيسى عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه ؟ و كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به؟ وقال صالح بن كيسان البصرى : أدركت الشيوخ وهم يتعوذون بالله من الفاجر العالم بالسنة . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ طَلَبَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ ٱللهِ تَعَالَى لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ ٱلدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »

وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال عز وجل فى علماء الدنيا :(وَإِذْ أَخَذَ ٱللهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) وقال تعالى فى علماء الآخرة : (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) وقال بعض السلف : العلماء يحشرون فى زمرة الأنبياء ، والقضاة يحشرون فى زمرة السلاطين .وفى معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه

وروى أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢) « أَوْحَى ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى بَعْضِ ٱلْأَنْبِيَاءِ : قُلْ لِلَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ ٱلدِّينِ، وَيَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ ٱلْعَمَلِ،

(١) حديث أبي هريرة من طلب علما مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضاً ـ الحديث : أبى داود وابن ماجه باسناد جيد.

(٢) حديث أبى الدرداء أوحي الله الى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين ـ الحديث : ابن عبد البر باسناد ضعيف

وَيَطْلُبُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الْكِبَاشِ وَقُلُوبُهُمْ كَقُلُوبِ الذِّئَابِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ ، إِيَّايَ يُخَادِعُونَ ، وَبِي يَسْتَهْزِءُونَ : لَأَفْتَحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَذَرُ الْحَلِيمَ حَيْرَانًا »

وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « عُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلَانِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا فَبَذَلَهُ لِلنَّاسِ وَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ طَمَعًا وَلَمْ يَشْتَرِ بِهِ ثَمَنًا ، فَذَلِكَ يُصَلِّي عَلَيْهِ طَيْرُ السَّمَاءِ وَحِيتَانُ الْمَاءِ وَدَوَابُّ الْأَرْضِ وَالْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ ، يَقْدَمُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيِّدًا شَرِيفًا حَتَّى يُرَافِقَ الْمُرْسَلِينَ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا فِي الدُّنْيَا فَضَنَّ بِهِ عَلَى عِبَادِ اللهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعًا وَاشْتَرَى بِهِ ثَمَنًا ، فَذَلِكَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْجَمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يُنَادِي مُنَادٍ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ : هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا فِي الدُّنْيَا فَضَنَّ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَأَخَذَ بِهِ طَمَعًا وَاشْتَرَى بِهِ ثَمَنًا ، فَيُعَذَّبُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ »

وأشد من هذا ماروى أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول : حدثنى موسى صفى الله ، حدثنى موسى نجىّ الله ، حدثنى موسى كليم الله ، حتى أثرى وكثر ماله ، ففقده موسى عليه السلام ، فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبرا ، حتى جاءه رجل ذات يوم وفى يده خنزير وفى عنقه حبل أسود ، فقال له موسى عليه السلام : أتعرف فلانا ؟ قال : نعم ، هو هذا الخنزير ؛ فقال موسى : يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عز وجل اليه : لو دعوتنى بالذى دعانى به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ، ولكن أخبرك لم صنعت هذا به : لأنه كان يطلب الدنيا بالدين

وأغلظ من هذا ماروى معاذ بن جبل رضى الله عنه موقوفا ومرفوعا فى رواية عن النبى

---

(١) حديث ابن عباس علماء هذه الأمة رجلان ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط باسناد ضعيف

صلى الله عليه وسلم قال : (١) « مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الاسْتِمَاعِ ، وَفِي الْكَلَامِ تَنْمِيقٌ وَزِيَادَةٌ وَلَا يُؤْمَنُ عَلَى صَاحِبِهِ الْخَطَأُ ، وَفِي الصَّمْتِ سَلَامَةٌ وَعِلْمٌ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَخْزُنُ عِلْمَهُ فَلَا يُحِبُّ أَنْ يُوجَدَ عِنْدَ غَيْرِهِ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الأَوَّلِ مِنَ النَّارِ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَكُونُ فِي عِلْمِهِ بِمَنْزِلَةِ السُّلْطَانِ إِنْ رُدَّ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ تُهُووِنَ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّهِ غَضِبَ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الثَّانِي مِنَ النَّارِ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَجْعَلُ عِلْمَهُ وَغَرَائِبَ حَدِيثِهِ لأَهْلِ الشَّرَفِ وَالْيَسَارِ وَلَا يَرَى أَهْلَ الْحَاجَةِ لَهُ أَهْلًا فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الثَّالِثِ مِنَ النَّارِ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَنْصِبُ نَفْسَهُ لِلْفُتْيَا فَيُفْتِي بِالْخَطَأِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْغِضُ الْمُتَكَلِّفِينَ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الرَّابِعِ مِنَ النَّارِ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِيَغْزُرَ بِهِ عِلْمُهُ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ الْخَامِسِ مِنَ النَّارِ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَتَّخِذُ عِلْمَهُ مُرُوءَةً وَنُبْلًا وَذِكْرًا فِي النَّاسِ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ السَّادِسِ مِنَ النَّارِ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَسْتَفِزُّهُ الزَّهْوُ وَالْعُجْبُ فَإِنْ وَعَظَ عَنَفَ وَإِنْ وُعِظَ أَنِفَ فَذَلِكَ فِي الدَّرْكِ السَّابِعِ مِنَ النَّارِ . فَعَلَيْكَ يَا أَخِي بِالصَّمْتِ فَبِهِ تَغْلِبُ الشَّيْطَانَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَضْحَكَ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ أَوْ تَمْشِي فِي غَيْرِ أَرَبٍ »

وفي خبر آخر (٢) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُنْشَرُ لَهُ مِنَ الثَّنَاءِ مَا يَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ) وروى أن الحسن حمل اليه رجل من خراسان كيسا بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البز وقال : ياأبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة . فقال الحسن : عافاك الله تعالى ، ضم اليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك ، إنه من جلس مثل مجلسى هذا وقبل من الناس مثل هذا ، لقى الله تعالى يوم القيامة

---

(١) حديث معاذ من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع ـ الحديث: أبو نعيم وابن الجوزى فى الموضوعات

(٢) حديث إن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة : لم أجده هكذا وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة : إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة

ولا خلاق له! وعن جابر رضى الله عنه موقوفا ومرفوعا قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1]
« لَا تَجْلِسُوا عِنْدَ كُلِّ عَالِمٍ إِلاَّ إِلَى عَالِمٍ يَدْعُوكُمْ مِنْ خَمْسٍ إِلَى خَمْسٍ : مِنَ الشَّكِّ إِلَى الْيَقِينِ وَمِنَ الرِّيَاءِ إِلَى الإِخْلَاصِ ، وَمِنَ الرَّغْبَةِ إِلَى الزُّهْدِ ، وَمِنَ الْكِبْرِ إِلَى التَّوَاضُعِ ، وَمِنَ الْعَدَاوَةِ إِلَى النَّصِيحَةِ، قال تعالى: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ) الآية . فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا

ومنها أن لا يخالف فعله قوله ، بل لا يأمر بالشيء مالم يكن هو أول عامل به ، قال الله تعالى: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ) وقال تعالى : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) وقال تعالى في قصة شعيب : (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) وقال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) وقال تعالى :(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا) (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا). وقال تعالى لعيسى عليه السلام « يَا ابْنَ مَرْيَمَ عِظْ نَفْسَكَ فَإِنِ اتَّعَظْتَ فَعِظِ النَّاسَ وَإِلاَّ فَاسْتَحِي مِنِّي» . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِأَقْوَامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتُم ؟ فَقَالُوا : كُنَّا نَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا نَأْتِيهِ وَنَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَنَأْتِيهِ » . وقال صلى الله عليه وسلم [3] « هَلَاكُ أُمَّتِي عَالِمٌ فَاجِرٌ وَعَابِدٌ جَاهِلٌ وَشَرُّ الشِّرَارِ شِرَارُ الْعُلَمَاءِ ، وَخَيْرُ الْخِيَارِ خِيَارُ الْعُلَمَاءِ »

وقال الأوزاعي رحمه الله : شكت النواويس ما تجد من نتن جيف الكفار ، فأوحى الله اليها : بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : بلغني أن

---

(١) حديث جابر لا تجلسوا عند كل عالم ـ الحديث : أبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في الموضوعات

(٢) حديث مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ـ الحديث : ابن حبان من حديث أنس

(٣) حديث هلاك أمتي عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء ـ الحديث : الدارمي من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا بآخر الحديث نحوه، وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث

الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: ويل لمن لايعلم مرة ، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وقال الشعبى : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ماأدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله ، وننهى عن الشر ونفعله . وقال حاتم الأصم رحمه الله : ليس فى القيامة أشد حسرة من رجل علّم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو . وقال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلّت موعظته عن القلوب كما يزل القَطْر عن الصفا . وأنشدوا :

ياواعظ الناس قد أصبحت متهما ... اذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا ... فالموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناسا راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : مررت بحجر بمكة مكتوب عليه : اقلبنى تعتبر: فقلبته فاذا عليه مكتوب : أنت بما تعلم لاتعمل فكيف تطلب علم مالم تعلم ! وقال ابن السماك رحمه الله : كم من مذكّر بالله ناس لله ؛ وكم من مخوّف بالله جرىء على الله، وكم من مقرّب إلى الله بعيد من الله ؛ وكم من داع إلى الله فارّ من الله ؛ وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله ! وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله: لقد أعربنا فى كلامنا فلم نلحَن ولحنّا فى أعمالنا فلم نعرب . وقال الأوزاعى: إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع

وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غَنْم أنه قال : حدثنى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كنا ندرس العلم فى مسجد قُباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (١) « تَعَلَّمُوا مَاشِئْتُمْ أَنْ تَعَلَّمُوا فَلَنْ يَأْجُرَكُمُ اللهُ حَتَّى تَعْمَلُوا » وقال عيسى

---

(١) حديث عبد الرحمن بن غنم عن عشرة من الصحابة تعلموا ماشئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا: علقمة بن عبد البر وأسنده ابن عدى وابو نعيم والخطيب في كتاب اقتضاء العلم للعمل من حديث معاذ فقط بسند ضعيف ورواه الدارمى موقوفا على معاذ بسند صحيح

عليه السلام : مثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر فحملت فظهر حملها فافتضحت ؛ فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الأشهاد . وقال معاذ رحمه الله : احذروا زَلّـة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتبعونه على زلته . وقال عمر رضي الله عنه : إذا زل العالم زل بزلته عالَم من الخلق . وقال عمر رضى الله عنه : ثلاث بهن ينهدم الزمان : إحداهن زلة العـالم . وقال ابن مسعود : سيأتى على الناس زمان تملُح فيـه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه ، فتـكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة ، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة ، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة ، ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم ، فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور ظاهر فى عمله ، فما أخصب الألسن يومئذ وما أجدب القلوب ! فوالله الذى لا إله إلا هو ماذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى ، والمتعلمين تعلموا لغير الله تعالى . وفى التوراة والانجيل مكتوب : لا تطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم وقال حذيفة رضى الله عنه : إنكم فى زمان من ترك فيه عُشر مايعلم هلك ، وسيأتى زمان من عمل فيه بعشر مايعلم نجا ، وذلك لـكثرة البطالين

واعلم أن مثل العالم مثل القاضى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) «اُلْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ : قَاضٍ قَضَى بِاُلْحَقِّ وَهُوَ يَعْلَمُ فَذَلِكَ فِى اُلْجَنَّةِ ، وَقَاضٍ قَضَى بِاُلْجَوْرِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَوْ لَا يَعْلَمُ فَهُوَ فِى النَّارِ ، وَقَاضٍ قَضَى بِغَيْرِ مَا أَمَرَ اُللهُ بِهِ فَهُوَ فِى النَّارِ » . وقال كعب رحمه الله : يكون فى آخر الزمان علماء يزهّدون الناس فى الدنيا ولا يزهدون ، ويخوفون الناس ولا يخافون ، وينهون عن غشيان الولاة ويأتونهم ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة ، يأكلون بألسنتهم ، يقربون الأغنياء دون الفقراء ، يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال ، يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره ، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وقال صلى الله عايه وسلم (٢) «إِنَّ الشَّيْطَانَ رُبَّمَا يُسَوِّفُكُمْ بِاُلعِلْمِ » فقيل يارسول الله وكيف ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) حديث القضاة ثلاثة ــ الحديث : أصحاب السنن من حديث بريدة ، وهو صحيح

(٢) حديث إن الشيطان ربما سبقكم بالعلم ــ الحديث : فى الجامع من حديث أنس بسند ضعيف

« يَقُولُ : أُطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَعْمَلْ حَتَّى تَعْلَمَ ، فَلَا يَزَالُ لِلْعِلْمِ قَائِلاً وَلِلْعَمَلِ مُسَوِّفاً حَتَّى يَمُوتَ وَمَا عَمِلَ »

وقال سَرِى السَّقَطى : اعتزل رجل للتعبد كان حريصا على طلب علم الظاهر ، فسألته فقال : رأيت فى النوم قائلا يقول لى إلى كم تضيع العلم ضيعك الله! فقلت : إنى لأحفظه، فقال حفظ العلم العمل به . فتركت الطلب وأقبلت على العمل . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية . وقال الحسن : تعلموا ماشئتم أن تعلموا فوالله لايأجركم الله حتى تعملوا، فان السفهاء همتهم الرواية ، والعلماء همتهم الرعاية . وقال مالك رحمه الله : إن طلب العلم لحسن ، وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ، ولكن انظر مايلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فلا تؤثرن عليه شيئا

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: أنزل القرءان ليعمل به فاتخذتم دراسته عملا، وسيأتى قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم، والعالم الذى لايعمل كالمريض الذى يصف الدواء ، وكالجائع الذى يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها وفى مثله قوله تعالى : (وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ). وفى الخبر (١) « مِمَّا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي زَلَّةُ عَالِمٍ وَجِدَالُ مُنَافِقٍ فِي الْقُرْءانِ »

ومنها أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع فى الآخرة ، المرغب فى الطاعات ، مجتنبا للعلوم التى يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال . فمثال من يعرض عن علم الأعمال ويشتغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيبا حاذقا فى وقت ضيق يخشى فواته ، فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب ، وترك مهمه الذى هو مؤاخذبه ، وذلك محض السفه . وقد روى (٢) « أَنَّ رَجُلًا جَاءَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: عَلِّمْنِي مِنْ غَرَائِبِ الْعِلْمِ، فَقَالَ لَهُ : مَاصَنَعْتَ فِي رَأْسِ الْعِلْمِ؟

---

(١) حديث مما أخاف على أمتى زلة عالم ـ الحديث : الطبرانى من حديث أبى الدرداء ، ولابن حبان نحوه من حديث عمران بن حصين

(٢) حديث ان رجلا جاء الي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمنى من غرائب العلم ـ الحديث : ابن السني وأبو نعيم فى كتاب الرياضة لهما وابن عبدالبر من حديث عبدالله بن المسور مرسلا وهو ضعيف جدا

فقَالَ : وَمَا رَأسُ الْعِلْمِ؟ قَالَ صلى لله عليه وسلم : هَلْ عَرَفْتَ الرَّبَّ تعالى ؟ قَالَ نَعَمْ .قَال فَاصنَعْتَ فى حقِّهِ ؟ قَالَ : ماشَاءَ اللهُ . فقَال صلى الله عليه وسلم : هَلْ عَرَفْتَ الْمَوْتَ ؟ قَالَ نَعمْ . قَالَ فَمَا أعْدَدْتَ لَهُ ؟ قَالَ : مَاشَاءَ الله . قَالَ صلى الله عليه وسلم : اذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَاهُنَاكَ ثُمَّ تَعَال نُعَلِّمْكَ مِنْ غرَائب الْعِلْمِ»

بل ينبغى أن يكون المتعلم من جنس ما روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخى رضى الله عنهما : أنه قال له شقيق : منذ كم صحبتنى ؟ قال حاتم : منذ ثلاث وثلاثين سنة . قال : فما تعلمت منى فى هذه المدة ؟ قال : ثمانى مسائل . قال شقيق له : إنّا لله وإنا اليهِ رَاجِعُونَ ، ذهب عمرى معك ولم تتعلم إلا ثمانى مسائل ! قال ياأستاذ لم أتعلم غيرها ، وإنى لا أحب أن أكذب. فقال : هات هذه الثمانى مسائل حتى أسمعها

قال حاتم : نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا فهو مع محبوبه الى القبر فاذا وصل الى القبر فارقه ، فجعلت الحسنات محبوبى ، فاذا دخلت القبر دخل محبوبى معى ، فقال أحسنت ياحاتم ، فما الثانية ؟

فقال : نظرت فى قول الله عز وجل : (وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنّ الجَنّةَ هِيَ الْمَأْوَى) فعلمت أن قوله سبحانه هو الحق ، فأجهدت نفسى فى دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى

الثالثة : أنى نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل من معه شىء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت الى قول الله عز وجل : (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ) فكلما وقع معى شىء له قيمة ومقدار وجهته الى الله ليبقى عنده محفوظا

الرابعة : أنى نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع الى المال والى الحسب والشرف والنسب ، فنظرت فيها فاذا هى لاشىء ، ثم نظرت الى قول الله تعالى : (إنّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) فعملت فى التقوى حتى أكون عند الله كريما

الخامسة : أنى نظرت الى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم فى بعض ويلعن بعضهم بعضا ، وأصل هذا كله الحسد ، ثم نظرت الى قول الله عز وجل : (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فى

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فتركت الحسد واجتنبت الخلق ، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه، فتركت عداوة الخلق عني

السادسة : نظرت الى هذا الخلق يبغي بعضهم على بعض ، ويقاتل بعضهم بعضا ، فرجعت إلى قول الله عزوجل (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) فعاديته وحده واجتهدت في أخذ حذري منه ، لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدوٌ لي ، فتركت عداوة الخلق غيره

السابعة : نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له ، ثم نظرت الى قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) فعلمت أني واحد من هذه الدواب التي على الله رزقها ، فاشتغلت بما لله تعالى عليّ ،وتركت مالي عنده

الثامنة : نظرت الى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق : هذا على ضيعته ، وهذا على تجارته ، وهذا على صناعته ، وهذا على صحة بدنه ، وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله ، فرجعت الى قوله تعالى : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) فتوكلت على الله عز وجل ، فهو حسبي .

قال شقيق : ياحاتم وفقك الله تعالى ، فاني نظرت في علوم التوراة والانجيل والزبور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة ، وهي تدور على هذه الثمان مسائل ،فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة ..

فهذا الفن من العلم لا يهتم بادراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة ، فأما علماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه ، ويهملون أمثال هذه العلوم التي بعث الله بها الأنبياء كلهم عليهم السلام . وقال الضحاك بن مزاحم : أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع ، وهم اليوم ما يتعلمون إلا الكلام

ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه في المطعم والمشرب ، والتنعم في الملبس ، والتجمل في الأثاث والمسكن، بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ، ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ، ويميل الى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك ، وكلما زاد الى طرف القلة ميله ازداد من الله قربه ،

وارتفع فى علماء الآخرة حزبه . ويشهدلذلك ماحكى عن أبى عبد الله الخوّاص ، وكان من أصحاب حاتم الأصم : قال : دخلت مع حاتم الى الرّى ومعنا ثلثمائة وعشرون رجلا نريد الحج وعليهم الزرمانقات وليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا على رجل من التجار متقشف يحب المساكين ، فأضافنا تلك الليلة ، فلما كان من الغد ، قال لحاتم : ألك حاجة ؟ فاني أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل . قال حاتم : عيادة المريض فيها فضل ، والنظر إلى الفقيه عبادة ، وأنا أيضا أجيء معك ، وكان العليل محمد بن مقاتل قاضى الرى ، فلما جئنا إلى الباب فاذا قصر مشرف حسن ، فبقى حاتم متفكراً يقول : باب عالم على هذه الحالة ! ثم أذن لهم فدخلوا ، فاذا دار حسناء قوراء ، واسعة نزهة ، واذا بزة وستور ، فبقى حاتم متفكرا ، ثم دخلوا الى المجلس الذى هو فيه ، واذا بفرُش وطيئة وهو راقد عليها وعند رأسه غلام وبيده مذبة ، فقعد الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم ، فأومأ اليه ابن مقاتل أن اجلس ، فقال : لاأجلس ، فقال : لعل لك حاجة ، قال : نعم ، قال : وما هى ؟ قال : مسألة أسألك عنها ، قال : سل ، قال : قم فاستو جالسا حتى أسألك ، فاستوى جالسا ، قال حاتم : علمك هذا من أين أخذته ؟ فقال : من الثقات حدثونى به ، قال : عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ورسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال: عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل ، قال حاتم : ففيما أداه جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأداه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ، وأصحابه إلى الثقات ، وأداه الثقات اليك : هل سمعت فيه من كان فى داره إشراف وكانت سعتها أكثر ، كان له عند الله عز جل المنزلة أكبر ؟ قال : لا ، قال : فكيف سمعت ؟ قال : سمعت أنه من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة وأحب المساكين وقدّم لآخرته ، كانت له عند الله المنزلة ، قال له حاتم : فأنت بمن اقتديت : أبالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم والصالحين رحمهم الله ، أم بفرعون ونمروذ أول من بنى بالجص والآجر ؟ ياعلماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة ، أفلا أكون أناشراً منه ؟ وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا ، وبلغ أهل الرّى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل ، فقالوا له : إن الطنافسى بقزوين أكثر توسعا منه ،

فسار حاتم متعمدا فدخل عليه ، فقال : رحمك الله أنا رجل أعجمى أحب أن تعلمنى مبتدأ دينى ومفتاح صلاتى كيف أتوضأ للصلاة . قال نعم وكرامة ، ياغلام هات إناء فيه ماء ، فأتى به فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثا ثلاثا ثلاثا ثم قال : هكذا فتوضأ ، فقال حاتم : مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد ، فقام الطنافسى وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعا أربعا ، فقال الطنافسى : باهذا أسرفت ، قال له حاتم : فيماذا ؟ قال : غسلت ذراعيك أربعا ، فقال حاتم : ياسبحان الله العظيم : أنا فى كف من ماء أسرفت وأنت فى جميع هذا كله لم تسرف ! فعلم الطنافسى أنه قصد ذلك دون التعلم ، فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوما ، فلما دخل حاتم بغداد اجتمع اليه أهل بغداد فقالوا : ياأبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمى وليس يكلمك أحد إلا قطعته ، قال : معى ثلاث خصال أظهر بهن على خصمى : أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، وأحفظ نفسى أن لا أجهل عليه . فبلغ ذلك الامام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ماأعقله ! قوموا بنا اليه، فلما دخلوا عليه قال له : ياأبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : ياأبا عبدالله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال: تغفر للقوم جهلهم ، وتمنع جهلك منهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم آيسا ، فاذا كنت هكذا سلمت

ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة ، فقال : ياقوم أية مدينة هذه ؟ قالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلى فيه ؟ قالوا : ما كان له قصر إنما كان له بيت لاطىء بالأرض ، قال : فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم؟ قالوا: ما كان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض ، قال حاتم : ياقوم فهذه مدينة فرعون ! فأخذوه وذهبوا به الى السلطان وقالوا : هذا العجمى يقول : هذه مدينة فرعون ، قال الوالى: ولم ذلك ؟ قال حاتم : لا تعجل علىّ أنا رجل أعجمى غريب دخلت البلد فقلت : مدينة من هذه ؟ فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت فأين قصره ، وقص القصة ، ثم قال : وقد قال الله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) فأنتم بمن تأسيتم ؛ أبرسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بنى بالجص والآجر ؟ فخلوا عنه وتركوه . فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى ، وسيأتى من سيرة السلف فى البذاذة وترك التجمل مايشهد لذلك فى مواضعه

والتحقيق فيه : أن التزين بالمباح ليس بحرام ، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه ، واستدامة الزينة لاتمكن إلا بمباشرة أسباب فى الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصى : من المداهنة ، ومراعاة الخلق ومراءاتهم ، وأمور أخر هى محظورة ؛ والحزم اجتناب ذلك ، لأن من خاض فى الدنيا لايسلم منها ألبتة ،ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لايبالغ فى ترك الدنيا حتى [1] « نَزَعَ الْقَمِيصَ الْمُطَرَّزَ بِالْعَلَمِ » « وَنَزَعَ خَاتَمَ الذَّهَبِ [2] فِى أَثْنَاءِ الْخُطْبَةِ » إلى غير ذلك مما سيأتى بيانه

وقد حكى أن يحيى بن يزيد النوفلى كتب إلى مالك بن أنس رضى الله عنهما :

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على رسوله محمد فى الأولين والآخرين . من يحيى بن يزيد بن عبدالملك إلى مالك بن أنس . أما بعد : فقد بلغنى أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطىء ، وتجعل على بابك حاجبا ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت اليك المطى ، وارتحل اليك الناس ، واتخذوك إماما ، ورضوا بقولك ، فاتق الله تعالى يامالك ، وعليك بالتواضع . كتبت اليك بالنصيحة منى كتابا ما اطلع عليه غير الله سبحانه و تعالى . والسلام

فكتب اليه مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد . سلام الله عليك . أما بعد : فقد وصل إلىّ كتابك فوقع منى موقع النصيحة والشفقة والأدب ، أمتعك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيرا ، وأسأل الله تعالى التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، فأما ماذكرت لى أنى آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطىء ، فنحن نفعل ذلك ، ونستغفر الله تعالى ، فقد قال الله تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) . وإنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا . والسلام

فانظر الى إنصاف مالك إذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، وأفتى بأنه مباح ، وقد صدق فيهما جميعا ، ومثل مالك فى منصبه اذا سمحت نفسه بالانصاف والاعتراف فى مثل

---

(١) حديث نزع القميص المعلم : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث نزع الخاتم الذهب فى أثناء الخطبة : متفق عليه من حديث ابن عمر

هذه النصيحة ، فتقوى أيضا نفسه على الوقوف على حدود المباح ، حتى لا يحمله ذلك على المراءاة والمداهنة ، والتجاوز الى المكروهات ، وأما غيره فلا يقدر عليه . فالتعريج على التنعم بالمباح خطر عظيم ، وهو بعيد من الخوف والخشية . وخاصية علماء الله تعالى الخشية . وخاصية الخشية التباعد من مظان الخطر

ومنها ـ أن يكون مستقصيا عن السلاطين ، فلا يدخل عليهم ألبتة ما دام يجد الى الفرار عنهم سبيلا ، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا اليه ، فأن الدنيا حلوة خضرة ، وزمامها بأيدي السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم ، مع أنهم ظلمة ، ويجب على كل متدين الإنكار عليهم ، وتضييق صدورهم باظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم . فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه ، أو يسكت عن الانكار عليهم فيكون مداهنا لهم ، أو يتكلف في كلامه كلاما لمرضاتهم وتحسين حالهم ، وذلك هو البهت الصريح ، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم ، وذلك هو السحت . وسيأتي في كتاب الحلال والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الأدرار والجوائز وغيرها . وعلى الجملة فمخالطتهم مفتاح للشرور ، وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط

وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] «مَنْ بَدَا جَفَا ـ يعني من سكن البادية جفا ـ وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَتَنَ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] «سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ ، فَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ بَرِئَ ، وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ أَبْعَدَهُ اللهُ تَعَالَى) قيل : أفلا نقاتلهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لَا ، مَا صَلَّوْا » . وقال سفيان : في جهنم وادٍ لا يسكنه إلا القُراء الزائرون للملوك . وقال حذيفة : إياكم ومواقف الفتن ، قيل : وما هي ؟ قال : أبواب الأمراء ، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] « الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ عَلَى عِبَادِ اللهِ تَعَالَى مَالَمْ يُخَالِطُوا

---

(١) حديث من بدا جفا ـ الحديث : أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث ابن عباس

(٢) حديث سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتنكرون ـ الحديث : مسلم من حديث أم سلمة .

(٣) حديث أنس العلماء أمناء الرسل على عباد الله ـ الحديث : العقيلي في الضعفاء وذكره ابن الجوزي في الموضوعات

السَّلَاطِينَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَاحْذَرُوهُمْ وَاعْتَزِلُوهُمْ » رواه أنس

وقيل للأعمش: لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك ، فقال : لاتعجلوا : ثلث يموتون قبل الادراك، وثلث يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق. والثلث الباقي لايفلح منه إلا القليل. ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمه الله : اذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فانه لص. وقال الأوزاعى : مامن شيء أبغض الى الله تعالى من عالم يزور عاملا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « شِرَارُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الأُمَرَاءَ ، وَخِيَارُ الأُمَرَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ الْعُلَمَاءَ »

وقال مكحول الدمشقي رحمه الله : من تعلم القرآن وتفقه فى الدين ثم صحب السلطان تملقا اليه وطمعا فيما لديه ، خاض فى بحر من نار جهنم بعدد خطاه . وقال سمنون : ماأسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسأل عنه فيقال : هو عند الأمير ! قال : وكنت أسمع أنه يقال: إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك ، إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسى بعد الخروج فأرى عليها الدرك ، وأنتم ترون ما ألقاه به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه ، ولوددت أن أنجو من الدخول عليه كفافا، مع أنى لا آخذ منه شيئا، ولا أشرب له شربة ماء، ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بنى اسرائيل : يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق هواه ، ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم عليه ، وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم

وقال الحسن : كان فيمن كان قبلكم رجل له قَدَم فى الاسلام وصحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عبد الله بن المبارك ، عنى به سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، قال : وكان لا يغشى السلاطين ، وينفر عنهم. فقال له بنوه: يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك فى الصحبة والقدم فى الاسلام فلو أتيتهم ! فقال: يابنَىَّ آتى جيفة قد أحاط بها قوم ، والله لئن استطعت لا أشاركهم فيها ! قالوا يا أبانا إذن نهلك هزالا ، قال: يابنى لأن أموت مؤمنا مهزولا أحب إلى من أن أموت منافقا سمينا ! قال الحسن : خصمهم والله ، إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن ، دون الايمان. وفى هذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لايسلم من النفاق ألبتة ، وهو مضاد للايمان . وقال أبو ذر لسلمة : يا سلمة لاتغش أبواب السلاطين فانك لاتصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من

---

(١) حديث شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء : ابن ماجه بالشطر الأول نحوه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف

دينك أفضل منه . وهذه فتنة عظيمة للعلماء ، وذريعة صعبة للشيطان عليهم، لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقى اليه أن فى وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم و يقيم شعائر الشرع ، الى أن يخيل اليه أن الدخول عليه من الدين ، ثم اذا دخل لم يلبث أن يتلطف فى الكلام ويداهن ، ويخوض فى الثناء والإطراء ، وفيه هلاك الدين .وكان يقال : العلماء اذا علموا عملوا ، فاذا عملوا شغلوا ، فاذا شغلوا فقدوا ، فاذا فقدوا طلبوا ، فاذا طلبوا هربوا

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله الى الحسن :

أما بعد فأشر عليّ بأقوام أستعين بهم على أمر الله تعالى

فكتب اليه :

أما أهل الدين فلا يريدونك ، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ،ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالخيانة

هذا فى عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وكان أزهد أهل زمانه ، فاذا كان شرط أهل الدين الهرب منه فكيف يستنسب طلب غيره ومخالطته . ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثورى وابن المبارك والفضيل وابراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون فى علماء الدنيا من أهل مكة والشام وغيرهم ، إما لميلهم الى الدنيا ، وإما لمخالطتهم السلاطين

ومنها ــ ألا يكون مسارعا إلى الفتيا ، بل يكون متوقفا ومحترزا ما وجد إلى الخلاص سبيلا، فان سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلى، أفتى، وإن سئل عما يشك فيه قال : لاأدرى ، وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان فى غيره غنية . هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم . وفى الخبر «الْعِلْمُ ثَلاثَةٌ (١) : كِتَابٌ نَاطِقٌ ، وَسُنَّةٌ قَائِمَةٌ ، وَلَا أَدْرِى» قال الشعبى : لا أدرى نصف العلم ، ومن سكت حيث لا يدرى لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق ، لان الاعتراف بالجهل

---

(١) حديث العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى : الخطيب فى أسماء من روى عن مالك موقوفا على ابن عمر ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبدالله بن عمرو مرفوعا نحوه مع اختلاف وقد تقدم

أشد على النفس . فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم

كان ابن عمر اذا سئل عن الفتيا قال : اذهب الى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس فضعها فى عنقه . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الذى يفتى الناس فى كل مايستفتونه لمجنون . وقال : جنة العالم لاأدرى ، فان أخطأها فقد أصيبت مقاتله . وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله : ليس شىء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم ، يقول انظروا الى هذا سكوته أشد علىّ من كلامه . ووصف بعضهم الأبدال فقال : أكلهم فاقة ، ونومهم غلبة ، وكلامهم ضرورة ، أى لايتكلمون حتى يسألوا ، وإذا سئلوا ووجدوا من يكفيهم سكتوا ، فان اضطروا أجابوا . وكانوا يعدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام .

ومرّ علىّ وعبد الله رضى الله عنهما برجل يتكلم على الناس، فقال : هذا يقول اعرفونى . وقال بعضهم : إنما العالم الذى إذا سئل عن المسألة فكأنما يقلع ضرسه . وكان ابن عمر يقول : تريدون أن تجعلونا جسرا تعبرون علينا الى جهنم ؟ وقال أبو حفص النيسابورى : العالم هو الذى يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة : من أين أجبت ؟ وكان ابراهيم التيمى إذا سئل عن مسألة يبكى ويقول : لم تجدوا غيرى حتى احتجتم الىّ ؟ وكان أبو العالية الرياحى وابراهيم بن أدهم والثورى يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير ، فاذا كثروا انصرفوا . وقال صلى الله عليه وسلم[1] مَا أَدْرِى أَعُزَيْرٌ نَبِيٌّ أَمْ لَا ، وَمَا أَدْرِى أَتُبَّعٌ مَلْعُونٌ أَمْ لَا ، وَمَا أَدْرِى ذُو الْقَرْنَيْنِ نَبِيٌّ أَمْ لَا »[2] «ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خَيْرِ الْبِقَاعِ فِى الْأَرْضِ وَشَرِّهَا ، قَالَ : لَا أَدْرِى ، حَتَّى نَزَلَ عليه جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَسَأَلَهُ فَقَال : لَا أَدْرِى ، إِلَى أَنْ أَعْلَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ خَيْرَ الْبِقَاعِ الْمَسَاجِدُ ، وَشَرَّهَا الْأَسْوَاقُ »

وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة . وكان فى الفقهاء من يقول لاأدرى أكثر ممن يقول أدرى ، منهم سفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل

---

(١) حديث ما أدري أعزير نبى أم لا ـ الحديث : أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث لما سئل عن خير البقاع وشرها قال لا أدرى حتى نزل جبريل ـ الحديث : أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر

والفضيل بن عياض ، وبشر بن الحارث . وقال عبدالرحمن بن أبي ليلى : أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنهم أحد يُسأل عن حديث أوفتيا إلا ودّ أن أخاه كفاه ذلك . وفي لفظ آخر : كانت المسألة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ، ويردها الآخر إلى الآخر ، حتى تعود إلى الأول

وروى أن أصحاب الصُّفّة أُهدى إلى واحد منهم رأس مشوى وهو في غاية الضر ، فأهداه إلى الآخر، وأهداه الآخر إلى الآخر ، هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول . فانظرْ الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوبا والمطلوب مهروبا عنه . ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ماروى مسندا عن بعضهم أنه قال : لايفتي الناس إلا ثلاثة : أمير ، أو مأمور ، أو متكلف . وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء : الامامة والوصية ، والوديعة ، والفتيا . وقال بعضهم: كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علما ، وأشدهم دفعا لها أورعهم . وكان شغل الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في خمسة أشياء : قراءة القرءان ،وعمارة المساجد ، وذكر الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم(١) «كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَالَهُ إِلَّا ثَلَاثَةً : أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ نَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ ، أَوْ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى»

وقال تعالى:(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) الآية . ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الرأى من أهل الكوفة في المنام فقال: مارأيت فيما كنت عليه من الفتيا والرأى ؟ فكره وجهه وأعرض عنه ، و قال : ماوجدناه شيئا ، وما حمدنا عاقبته . وقال ابن حصين : إن أحدهم ليفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر ! فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة. وفي الحديث «إِذَا رَأَيْتُمُ(٢) الرَّجُلَ قَدْ أُوتِيَ صَمْتًا وَزُهْدًا فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الْحِكْمَةَ » .

---

(١) حديث كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة ــ الحديث : الترمذي وابن ماجه من حديث أم حبيبة قال الترمذي حديث غريب

(٢) حديث اذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتا وزهدا ــ الحديث : ابن ماجه من حديث ابن خلاد باسناد ضعيف

وقيل : العالم إما عالم عامة وهو المفتى وهم أصحاب السلاطين ، أو عالم خاصة وهو العالم بالتوحيد وأعمال القلوب وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المنفردون

وكان يقال : مثل أحمد بن حنبل مثل دِجلة : كل أحد يغترف منها ، ومثل بشر بن الحارث مثل بئر عذبة مغطاة لايقصدها إلا واحد بعد واحد . وكانوا يقولون : فلان عالم ، وفلان متكلم ، وفلان أكثر كلاما ، وفلان أكثر عملا . وقال أبو سليمان: المعرفة إلى السكوت أقرب منها الى الكلام . وقيل : إذا كثر العلم قلّ الكلام ، واذا كثر الكلام قلّ العلم . وكتب سلمان الى أبى الدرداء رضى الله عنهما وكان «قد آخى[١] بَيْنَهُمَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم» : ياأخى : بلغنى أنك قعدت طبيبا تداوى المرضى ، فانظر فان كنت طبيبا فتكلم فان كلامك شفاء وإن كنت متطببا فالله الله لاتقتل مسلما . فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك اذا سئل . وكان أنس رضى الله عنه إذا سئل يقول : سلوا مولانا الحسن . وكان ابن عباس رضى الله عنهما اذا سئل يقول : سلوا حارثة بن زيد . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : سلوا سعيد بن المسيب وحكى أنه روى صحابى فى حضرة الحسن عشرين حديثا فسئل عن تفسيرها فقال : ماعندى إلا مارويت ، فأخذ الحسن فى تفسيرها حديثا حديثا فتعجبوا من حسن تفسيره وحفظه ، فأخذ الصحابى كفًّا من حصى ورماهم به وقال : تسألونى عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم !

ومنها ـ أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه ، وصدق الرجاء فى انكشاف ذلك ، من المجاهدة والمراقبة ، فان المجاهدة تفضى إلى المشاهدة ، ودقائق علوم القلوب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعليم فلا تفى بذلك ، بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تنفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة، والجلوس مع الله عز وجل فى الخلوة مع حضور القلب بصافى الفكرة ، والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه ، فذلك مفتاح الالهام ، ومنبع الكشف ، فكم من متعلم طال تعامه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة . وكم من مقتصر على المهم فى التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الألباب !

(١) حديث مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء : البخارى من حديث أبى جحيفة

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : (١) « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَالَمْ يَعْلَمْ »

وفى بعض الكتب السالفة : يابنى اسرائيل لا تقولوا : العلم فى السماء من ينزل به إلى الأرض، ولا فى تخوم الأرض من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبر يأتى به، العلم مجعول فى قلوبكم، تأدبوا بين يدىّ بآداب الروحانيين، وتخلقوا لى بأخلاق الصدّيقين أظهر العلم فى قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم . وقال سهل بن عبد الله التُسْتَرى رحمه الله : خرج العلماء والعباد والزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ، ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء، ثم تلاقوله تعالى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ) الآية . ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالنور الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال صلى الله عليه وسلم : « اُسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ وَأَفْتَوْكَ » . وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى : (٢) « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ »الحديث. فكم من معان دقيقة من أسرار القرءان تخطر على قلب المتجردين للذكر والفكر تخلو عنها كتب التفاسير ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين ، وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسنوه ، وعلموا أن ذلك من تنبيهات القلوب الزكية ، وألطاف الله تعالى بالهمم العالية المتوجهة اليه ، وكذلك فى علوم المكاشفة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب، فان كل علم من هذه العلوم بحر لا يدرك عمقه ، وإنما يخوضه كل طالب بقدر ما رزق منه ، وبحسب ما وفق له من حسن العمل

وفى وصف هؤلاء العلماء قال على رضى الله عنه فى حديث طويل : «القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة : عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع أتباع لكل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزكو على الانفاق والمال ينقصه الانفاق ، والعلم دين يدان به ، تكتسب به الطاعة فى حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، العلم حاكم والمال

---

(١) حديث من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم : أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وضعفه

(٢) حديث لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا : متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ كنت سمعه وبصره. وهو فى الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أنس بسند ضعيف

محكوم عليه ، ومنفعة المال تزول بزواله ، مات خُزّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء أحياء باقون ما بقي الدهر . ثم تنفس الصعداء ، وقال: هاه ! إن ها هنا علما جمًّا لو وجدت له حملة ، بل أجد طالباً غير مأمون يستعمل آلة الدين فى طلب الدنيا ، ويستطيل بنعم الله على أوليائه ، ويستظهر بحجته على خلقه ، أو منقادا لأهل الحق لكن ينزرع الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة ، لا بصيرة له لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما باللذات سلس القياد فى طلب الشهوات ، أو مغرى بجمع الأموال والادخار منقاداً لهواه ، أقرب شبها بهم الأنعام السائمة ، اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ، ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهر مكشوف ، وإما خائف مقهور ، لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته ؛ وكم وأين أولئك هم الأقلون عدداً ، الأعظمون قدرا ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة ، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من وراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه ، وأمناؤه وعماله فى أرضه ، والدعاة إلى دينه . ثم بكى وقال: واشوقاه إلى رؤيتهم!!»

فهذا الذى ذكره أخيرا هو وصف علماء الآخرة ، وهو العلم الذى يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة

ومنها ـ أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين، فإن اليقين هو رأس مال الدين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « اَلْيَقِينُ اَلإِيمَانُ كُلُّهُ » فلا بد من تعلم علم اليقين ، أعنى أوائله ، ثم ينفتح للقلب طريقه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [٢] «تَعَلَّمُوا اُلْيَقِينَ» ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين ، وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوى يقينهم ، وقليل من اليقين خير من كثير من العمل . وقال صلى الله عليه وسلم لما قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب ، ورجل مجتهد فى العبادة قليل اليقين ، فقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَامِنْ آدَمِيٍّ

---

(١) حديث اليقين الايمان كله: البيهقي فى الزهد والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود باسناد حسن

(٢) حديث تعلموا اليقين : أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد مرسلا وهو معضل ورواه ابن أبى الدنيا فى اليقين من قول خالد بن معدان

(٣) حديث قيل له رجل حسن اليقين كثير الذنوب : الترمذى الحكيم فى النوادر من حديث أنس باسناد مظلم

إلاَّ وَلَهُ ذُنُوبٌ » ولـكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ، لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم ، فتكفر ذنوبه ، ويبقى له فضل يدخل به الجنة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ مِنْ أَقَلِّ مَاأُوتِيتُمُ الْيَقِينَ وَعَزِيمَةَ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعْطِىَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ مَافَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ » . وفى وصية لقمان لابنه : يابنى لايستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينه

وقال يحيى بن معاذ : إن للتوحيد نورا ، وللشرك نارا ، وإن نور التوحيد أحرقُ لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين . وأراد به اليقين . وقد أشار الله تعالى فى القرءان إلى ذكر الموقنين فى مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات

فان قلت : فمامعنى اليقين ، وما معنى قوته وضعفه فلا بد من فهمه أولاً ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه ، فان مالاتفهم صورته لايمكن طلبه ؟

فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين : أما النظّار والمتكلمون فيعبرون به عن عدم الشك ، إذ ميل النفس إلى التصديق بالشىء له أربع مقامات :

الأول ـ أن يعتدل التصديق والتكذيب ؛ ويعبر عنه بالشك ، كما إذا سئلت عن شخص معين أن الله تعالى يعاقبه أم لا وهو مجهول الحال عندك ، فان نفسك لاتميل إلى الحكم فيه باثبات ولا نفى ، بل يستوى عندك إمكان الأمرين ، فيسمى هذا شكا

الثانى ـ أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بامكان نقيضه ، ولكنه إمكان لايمنع ترجيح الأول، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب ؟ فان نفسك تميل إلى أنه لايعاقب أكثر من ميلها الى العقاب . وذلك لظهور علامات الصلاح ، ومع هذا فأنت تجوّز اختفاء أمر موجب للعقاب فى باطنه وسريرته ،فهذا التجويز مساو لذلك الميل ، ولـكنه غير دافع رجحانه . فهذه الحالة تسمى ظنا

الثالث ـ أن تميل النفس الى التصديق بشىء بحيث يغلب عليها ولايخطر بالبال غيره ، ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله ، ولـكن ليس ذلك مع معرفة محققة ، إذ لو أحسن صاحب

---

(١) حديث من أولى ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ـ الحديث: لم أقف له على أصل وروى ابن عبد البر من حديث معاذ ماأنزل الله شيئا أقل من اليقين ولا قسم شيئا بين الناس أقل من الحلم ـ الحديث

هذا المقام التأمل والاصغاء الى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز، وهذا يسمى اعتقادا مقاربا لليقين ، وهو اعتقاد العوام فى الشرعيات كلها ، إذ رسخ فى نفوسهم بمجرد السماع ، حتى إن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها ، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله

الرابع ـ المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لايشك فيه ولا يتصور الشك فيه ، فاذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقينا عند هؤلاء . ومثاله أنه إذا قيل للعاقل : هل فى الوجود شىء هو قديم؟ فلا يمكنه التصديق به بالبديهة ، لأن القديم غير محسوس، لا كالشمس والقمر ، فانه يصدق بوجودهما بالحس ، وليس العلم بوجود شىء قديم أزلى ضروريا مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ، بل مثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال، فان هذا أيضا ضرورى ، فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهة . ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقا جزما ويستمر عليه ، وذلك هو الاعتقاد ، وهو حال جميع العوام . ومن الناس من يصدّق به بالبرهان وهو أن يقال له : إن لم يكن فى الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة ، فان كانت كلها حادثة فهى حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال ، فالمؤدى الى المحال محال ، فيلزم فى العقل التصديق بوجود شىء قديم بالضرورة ، لأن الأقسام ثلاثة : وهى أن تكون الموجودات كلها قديمة ، أو كلها حادثة ، أو بعضها قديمة وبعضها حادثة ، فان كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم ، وإن كان الكل حادثا فهو محال، إذ يؤدى الى حدوث بغير سبب ، فيثبت القسم الثالث أو الأول ، وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقينا عند هؤلاء ، سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل ، كالعلم باستحالة حادث بلا سبب ، أو بتواتر كالعلم بوجود مكة ، أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل ، أو بدليل كما ذكرنا

فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك . فكل علم لاشك فيه يسمى يقينا عند هؤلاء، وعلى هذا لايوصف اليقين بالضعف ، إذ لا تفاوت فى نفى الشك .

الاصطلاح الثانى ـــ اصطلاح الفقهاء والمتصوّفة وأكثر العلماء ، وهو أن لا يلتفت فيه الى اعتبار التجويز والشك ، بل الى استيلائه وغلبته على العقل ، حتى يقال : فلان ضعيف اليقين

بالموت مع أنه لاشك فيه ، ويقال: فلان قوى اليقين فى إتيـان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لايأتيه . فمها مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف فى النفس بالتجويز والمنع ، سمى ذلك يقينا .ولا شك فى أن الناس مشتركون فى القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه ، ولـكن فيهم من لايلتفت اليه ، ولا الى الاستعداد له ، وكأنه غير موقن به . ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يغادر فيه متسعا لغيره، فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوّة اليقين . ولذلك قال بعضهم : مارأيت يقينا لاشك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت . وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوّة . ونحن إنما أردنا بقولنا : إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية الى تقوية اليقين بالمعنيين جميعا ، وهو نفى الشك ، ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها

فاذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام،بالقوّة والضعف ، والـكثرة والقلة ، والخفاء والجلاء ، فأما بالقوّة والضعف فعلى الاصطلاح الثـانى ، وذلك فى الغلبة والاستيلاء على القلب ، ودرجات معانى اليقين فى القوّة والضعف لاتتناهى ، وتفاوت الخلق فى الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعانى .وأما التفاوت بالخفاء والجلاء فى الاصطلاح الأول فلا ينكر أيضا ، أما فيما يتطرق اليه التجويز فلا ينكر،أعنى الاصطلاح الثانى ، وفيما انتفى الشك أيضـا عنه لاسبيل الى إنكاره ، فانك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فَدَك مثلا ، وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام مع أنك لاتشك فى الأمرين جميعا ،اذمستندهما جميعا التواتر، ولـكن ترى أحدهما أجلى وأوضح فى قلبك من الثانى ، لأن السبب فى أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين ، وكذلك يدرك الناظر هذا فى النظريات المعروفة بالأدلة ، فانه ليس وضوح مالاح له بدليل واحد كوضوح مالاح له بالأدلة الـكثيرة مع تساويهما فى نفى الشك ، وهذا قد ينكره المتكلم الذى يأخذ العلم من الـكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال. وأما القلة والـكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين ، كما يقال : فلان أكثر علما من فلان ، أى معلوماته أكثر ، ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع ماورد الشرع به ، وقد يكون قوى اليقين فى بعضه

فان قلت : قد فهمت اليقين وقوته وضعفه ، وكثرته وقلته ، وجلاءه وخفاءه ، بمعنى نفى

الشك ، أو بمعنى الاستيلاء على القلب ، فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه، وفيماذا يطلب اليقين، فاني مالم أعرف مايطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه ؟

فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجارى اليقين، فان اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة، ومتعلقه المعلومات التى وردت بها الشرائع، فلا مطمع فى إحصائها ، ولكنى أشير إلى بعضها وهى أمهاتها :

فمن ذلك التوحيد : وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب، ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط مسخرة لاحكم لها ،فالمصدق بهذا موقن ، فان انتفى عن قلبه مع الايمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين ، فان غلب على قلبه مع الايمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم، ونزّل الوسائط فى قلبه منزلة القلم واليد فى حق المنعم بالتوقيع فانه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما، بل يراهما آلتين مسخرتين وواسطتين ، فقد صار موقنا بالمعنى الثانى، وهو الأشرف، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته . ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوق فهى مسخرات بأمره حسب تسخير القلم فى يد الكاتب ، وأن القدرة الأزلية هى المصدر للكل ، استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم ، وصار موقنا بريئا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق . فهذا أحد أبواب اليقين

ومن ذلك الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق فى قوله تعالى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا) ، واليقين بأن ذلك يأتيه ، وأن ما قدر له سيساق اليه . ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملا فى الطلب ، ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على مافاته ، وأثمر هذا اليقين أيضا جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة

ومن ذلك أن يغلب على قلبه أن مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ،وهو اليقين بالثواب والعقاب ، حتى يرى نسبة الطاعات الى الثواب كنسبة الخبز الى الشبع ، ونسبة المعاصى الى العقاب كنسبة السموم والأفاعى الى الهلاك ، فكما يحرص على التحصيل للخبز طلبا للشبع فيحفظ قليله وكثيره ، فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها وكثيرها ،وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها ، فكذلك يجتنب المعاصى قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها . فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين ، أما بالمعنى الثانى فيختص به المقربون.

وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة فى الحركات والسكنات والخطرات، والمبالغة فى التقوى، والتحرز عن كل السيئات ، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ

ومن ذلك اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك فى كل حال ، ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك ، فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك ، وأما بالمعنى الثانى وهو المقصود فهو عزيز يختص به الصدّيقون . وثمرته أن يكون الانسان فى خلوته متأدبا فى جميع أحواله ، كالجالس بمشهد ملك معظم ينظر اليه ، فانه لا يزال مطرقا متأدبا فى جميع أعماله ، متماسكا محترزا عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ، ويكون فى فكرته الباطنة كهو فى أعماله الظاهرة ، إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره ، فتكون مبالغته فى عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى الكائنة أشد من مبالغته فى تزيين ظاهره لسائر الناس ، وهذا المقام فى اليقين يورث الحياء والخوف والانكسار، والذل والاستكانة والخضوع ، وجملة من الأخلاق المحمودة . وهذه الأخلاق تورث أنواعا من الطاعات رفيعة ، فاليقين فى كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة . وهذه الأخلاق فى القلب مثل الأغصان المتفرعة منها . وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان . فاليقين هو الأصل والأساس ، وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه . وسيأتى ذلك فى ربع المنجيات ، إن شاء الله تعالى . وهذا القدر كاف فى معنى اللفظ الآن

ومنها ـ أن يكون حزينا منكسرا مطرقا صامتا ، يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته : لا ينظر اليه ناظر إلا وكان نظره مذكرا لله تعالى ، وكانت صورته دليلا على عمله ، فالجواد عينه مرآته ، وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم فى السكينة والذلة والتواضع . وقد قيل : ما ألبس الله عبدا ألبسة أحسن من خشوع فى سكينة، فهى لبسة الأنبياء ، وسيما الصالحين والصديقين والعلماء

وأما التهافت فى الكلام والتشدّق ، والاستغراق فى الضحك والحدة فى الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر ، والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه ، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به . وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التُّسْتَرى رحمه الله : عالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله ، وهم المفتون فى الحلال والحرام ، وهذا العلم لا يورث الخشية ؛ وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله، وهم عموم المؤمنين؛ وعالم بالله تعالى وبأمر الله

تعالى وبأيام الله تعالى ، وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم . وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه الباطنة التى أفاضها على القرون السالفة واللاحقة . فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه

وقال عمر رضى الله عنه : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، وليتواضع لكم من يتعلم منكم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ؛ فلا يقوم علمكم بجهلكم . ويقال ما آتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق ورفقا ؛ فذلك هو العلم النافع . وفى الأثر : من آتاه الله علما وزهدا وتواضعا وحسن خلق فهو إمام المتقين . وفى الخبر (١) « إِنَّ مِنْ خِيَارِ أُمَّتِي قَوْمًا يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ، وَيَبْكُونَ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ ، أَبْدَانُهُمْ فِي الأَرْضِ وَقُلُوبُهُمْ فِي السَّمَاءِ ، أَرْوَاحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَعُقُولُهُمْ فِي الآخِرَةِ ،يَتَمَشَّوْنَ بِالسَّكِينَةِ ،وَيَتَقَرَّبُونَ بِالوَسِيلَةِ» . وقال الحسن: الحلم وزير العلم ،والرفق أبوه، والتواضع سرباله

وقال بشر بن الحارث: من طلب الرياسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى ببغضه فانه ممقوت فى السماء والأرض.ويروى فى الاسرائيليات أن حكيما صنف ثلاثمائة وستين مصنفا فى الحكمة حتى وصف بالحكيم ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل لفلان ملأت الأرض نفاقا ولم تردنى من ذلك بشىء وإنى لاأقبل من نفاقك شيئا . فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة ومشى فى الأسواق وواكل بنى إسرائيل وتواضع فى نفسه ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له :الآن وفقت لرضاى

وحكى الأزاعى رحمه الله عن بلال بن سعد أنه كان يقول : ينظر أحدكم إلى الشرطى فيستعيذ بالله منه ؛ وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق المتشوفين إلى الرياسة فلا يمقتهم وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطى . وروى أنه(٢) « قِيلَ : يَارَسُولَ اللهِ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ

(١) حديث إن من خيار أمتى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويبكون سرا من خوف عذابه الحديث : الحاكم والبيهقى فى شعب الايمان وضعفه من حديث عياض بن سليمان

(٢) حديث قيل يارسول الله أي الأعمال أفضل قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله الحديث : لم أجده هكذا بطوله وفى زيادات الزهد لابن المبارك من حديث الحسن مرسلا : سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أى الأعمال أفضل قال أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى. وللدارمى من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا ألا إن شر الشر شرار العلماء وإن خير الخير خيار العلماء . وقد تقدم

أُجْتِنَابُ ٱلْمَحَارِمِ، وَلَا يَزَالُ فُوكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى . قيل : فَأَىُّ ٱلْأَصْحَابِ خَيْرٌ؟ قال صلى الله عليه وسلم: صَاحِبٌ إِنْ ذَكَرْتَ ٱللهَ أَعَانَكَ ، وَإِنْ نَسِيتَهُ ذَكَّرَكَ . قِيلَ : فَأَىُّ ٱلْأَصْحَابِ شَرٌّ؟ قال صلى الله عليه وسلم: صَاحِبٌ إِنْ نَسِيتَ لَمْ يُذَكِّرْكَ ، وَإِنْ ذَكَرْتَ لَمْ يُعِنْكَ . قيل : فَأَىُّ ٱلنَّاسِ أَعْلَمُ ؟ قال : أَشَدُّهُمْ لِلهِ خَشْيَةً . قيل: فَأَخْبِرْنَا بِخِيَارِنَا نُجَالِسُهُمْ. قال صلى الله عليه وسلم: ٱلَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ ٱللهُ . قيل: فَأَىُّ ٱلنَّاسِ شَرٌّ ؟ قال : ٱللَّهُمَّ غَفْرًا . قَالُوا أَخْبِرْنَا يَارَسُولَ ٱللهِ ، قال : ٱلْعُلَمَاءُ إِذَا فَسَدُوا »

وقال صلى الله عليه وسلم (١) «إِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ أَمَانًا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ فِكْرًا فِي ٱلدُّنْيَا ، وَأَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ضَحِكًا فِي ٱلْآخِرَةِ أَكْثَرُهُم بُكَاءً فِي ٱلدُّنْيَا ، وَأَشَدُّ ٱلنَّاسِ فَرَحًا فِي ٱلْآخِرَةِ أَطْوَلُهُمْ حُزْنًا فِي ٱلدُّنْيَا »

وقال على رضى الله عنه فى خطبة له : ذمتى رهينة وأنا به زعيم ، إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم ، ولا يظمأ على الهدى سبخ أصل ، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره ، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قمش علما أغار به فى أغباش الفتنة ، سمّاه أشباه له من الناس وأرذالهم عالما ، ولم يعش فى العلم يوما سالما ، بكّر واستكثر ، فما قل منه وكفى خير مما كثر وألهى ، حتى إذا ارتوى من ماء آجن ، وأكثر من غير طائل ، جلس للناس معلما لتخليص ما التبس على غيره ، فان نزلت به إحدى المهمات هيأ لها من رأيه حشو الرأى ، فهو من قطع الشبهات فى مثل نسج العنكبوت لا يدرى أخطأ أم أصاب ، ركّاب جهالات ، خباط عشوات ، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ، ولا يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم ، تبكى منه الدماء ، وتستحل بقضائه الفروج الحرام ، لا ملىء والله بإصدار ما ورد عليه ، ولا هو أهل لما فوض اليه ، أولئك الذين حلت عليهم المثُلات ، وحقت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا . وقال على رضى الله عنه: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب

وقال بعض السلف : العالم إذا ضحك ضَحْكَةً مَجَّ من العلم مَجّة . وقيل : إذا جمع المعلم

---

(١) حديث إن أكثرالناس أمناً يوم القيامة أكثرهم خوفا في الدنيا۔ الحديث : لم أجد له أصلا

ثلاثا تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر، والتواضع، وحسن الخلق، وإذا جمع المتعلم ثلاثا تمت النعمة بها على المعلم : العقل، والأدب، وحسن الفهم. وعلى الجملة فالأخلاق التى ورد بها القرءان لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرءان للعمل لا للرياسة. وقال ابن عمر رضى الله عنها(١) « لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتَى الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْءَانِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا وَأَوَامِرَهَا وَزَوَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالاً يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْءَانَ قَبْلَ الإِيمَانِ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ إِلَى خَاتِمَتِهِ لَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَمَا زَاجِرُهُ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ، يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ» وفى خبر آخر بمثل معناه(٢) « كُنَّا أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أُوتِينَا الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْءَانِ، وَسَيَأْتِي بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يُؤْتَوْنَ الْقُرْءَانَ قَبْلَ الإِيمَانِ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ وَيُضَيِّعُونَ حُدُودَهُ وَحُقُوقَهُ يَقُولُونَ قَرَأْنَا فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا وَعَلِمْنَا فَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟ فَذَلِكَ حَظُّهُمْ» وفى لفظ آخر: « أُولَئِكَ شِرَارُ هَذِهِ الأُمَّةِ »

وقيل : خمس من الأخلاق هى من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل: الخشية، والخشوع، والتواضع، وحسن الخلق، وإيثار الآخرة على الدنيا، وهو الزهد، فأما الخشية فمن قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . وأما الخشوع فمن قوله تعالى: (خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا) . وأما التواضع فمن قوله تعالى: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) . وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) وأما الزهد فمن قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) ولما تلا(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ

---

(١) حديث ابن عمر لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الايمان قبل القرءان ـ الحديث : الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقى

(٢) حديث كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الايمان قبل القرءان ـ الحديث: ابن ماجه من حديث جندب مختصرا مع اختلاف

(٣) حديث لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام» الحديث الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن مسعود

صَدْرَهُ للإِسْلَامِ) فقيل له : ماهذا الشَّرْحُ ؟ فقال : إن النُّورَ إذا قُذِفَ فِي الْقَلْبِ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ ، قيل : فَهَلْ لِذَلِكَ مِن عَلَامَةٍ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نَعَمْ : التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ ، وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ »

ومنها ـ أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر ، فان أصل الدين التوقى من الشر ، ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة ،وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان ، وإنما الشأن فى معرفة مايفسدها ويشوشها ، وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه ، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة اليه ، وتعم به البلوى فى سلوك طريق الآخرة

وأما علماء الدنيا فانهم يتبعون غرائب التفريعات فى الحكومات والأقضية ، ويتعبون فى وضع صور تنقضى الدهور ولا تقع أبدا ، وإن وقعت فانما تقع لغيرهم لا لهم ، وإذا وقعت كان فى القائمين بها كثرة ،ويتركون مايلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار، فى خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم . وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر ، ايثارا للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه ، وشرهاً فى أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بالدقائق ! وجزاؤه من الله أن لاينتفع فى الدنيا بقبول الخلق ، بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ، ثم يرد القيامة مفلسا متحسرا على مايشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين ، وذلك هو الخسران المبين

ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم : اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك ، وكان أكثر كلامه فى خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووساوس النفوس ،والصفات الخفية الغامضة ، من شهوات النفس . وقد قيل له : ياأبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان . وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن

أين أخذته ؟ قال: خصّني به رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ أَقَعَ فِيهِ وَعَلِمْتُ أَنَّ الْخَيْرَ لَا يَسْبِقُنِي عِلْمُهُ » . وقال مرة : « فَعَلِمْتُ أَنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّرَّ لَا يَعْرِفُ الْخَيْرَ » وفى لفظ آخر « كَانُوا يَقُولُونَ يَارَسُولَ اللهِ مَا لِمَنْ عَمِلَ كَذَا وَكَذَا ؟ يَسْأَلُونَهُ عَنْ فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ ، وَكُنْتُ أَقُولُ يَارَسُولَ اللهِ : مَا يُفْسِدُ كَذَا وَكَذَا ؟ فَلَمَّا رَآنِي أَسْأَلُهُ عَنْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ خَصَّنِي بِهَذَا الْعِلْمِ »

وكان حذيفة رضى الله عنه أيضا قد خص بعلم المنافقين ، وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضى الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة . وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقى منهم، ولا يخبر بأسمائهم . وكان عمر رضى الله عنه يسأله عن نفسه : هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه من ذلك . وكان عمر رضى الله عنه اذا دُعى الى جنازة ليصلى عليها نظر : فان حضر حذيفة صلى عليها ، وإلا ترك . وكان يسمى صاحب السر

فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة ، لأن القلب هو الساعى إلى قرب الله تعالى . وقد صار هذا الفن غريبا مندرسا ، واذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد ، وقيل هذا تزويق المذكرين ، فأين التحقيق ، ويرون أن التحقيق فى قادئق المجادلات . ولقد صدق من قال :

الطُّرْق شتىّ وطُرْق الحق مفردة ... والسالكون طريقَ الحق أفراد
لا يُعرفون ولا تُدرى مقاصدُهم ... فهم على مهل يمشون قُصاد
والناس فى غفلة عما يراد بهم ... فجلهم عن سبيل الحق رقاد

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم ، فان الحق مرّ ، والوقوف عليه صعب ، وإدراكه شديد ، وطريقه مستوعر ، ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة ، فان ذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب

---

(١) حديث حذيفة كان الناس يُسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أساله عن الشر ـ الحديث : أخرجاه مختصرا

للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء ، وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه ، فهو يقاسى الشدائد ليكون فطره عند الموت ، ومتى تكثر الرغبة فى هذا الطريق . ولذلك قيل : إنه كان فى البصرة مائة وعشرون متكلما فى الوعظ والتذكير ، ولم يكن من يتكلم فى علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة : منهم سهل التُّسْتَرَى ، والصبيحى ، وعبد الرحيم ، وكان يجلس إلى أولئك الخلقُ الكثير الذى لا يحصى ، وإلى هؤلاء عدد يسير قلَّما يجاوز العشرة ، لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص ، وما يبذل للعموم فأمره قريب

ومنها ـ أن يكون اعتماده فى علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره ، وإنما المقلَّد صاحبُ الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله ؛ وإنما يقلد الصحابة رضى الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فى تلقى أقواله وأفعاله بالقبول فينبغى أن يكون حريصا على فهم أسراره ؛ فان المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعلَه ، وفعله لابد وأن يكون لسرّ فيه ، فينبغى أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال ، فانه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ، ولا يكون عالما . ولذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم ، فلا يسمى عالما اذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحِكَم والأسرار ، ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار فى نفسه متبوعا مقلَّدا ، فلا ينبغى أن يقلد غيره . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما[1] «مَامِنْ أَحَدٍ إِلاَّ يُؤْخَذُ مِنْ عِلْمِهِ وَيُتْرَكُ إِلاَّ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم » وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه ، وقرأ على أبىّ بن كعب ، ثم خالفهما فى الفقه والقراءة جميعا . وقال بعض السلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الرأس والعين ، وما جاءنا عن الصحابة رضى الله عنهم فنأخذ منه ونترك ، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال

وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعتلاق قلوبهم أمورا أدركت بالقرائن ، فسددهم ذلك الى الصواب من حيث لا يدخل فى الرواية والعبارة

---

(١) حديث ابن عباس مامن أحد الا يؤخذ من علمه ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم: الطبرانى من من حديثه يرفعه بلفظه من قوله: ويدع

إذ فاض عليهم من نور النبوّة مايحرسهم فى الأكثر عن الخطأ . وإذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليدا غير مرضىّ فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد ، بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شىء منها فى زمن الصحابة وصدر التابعين ، وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة ، وبعد وفاة جميع الصحابة وجلة التابعين رضى الله عنهم ، وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين ، بل كان الأولون يكرهون كَتْب الأحاديث وتصنيف الكتب ، لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرءان وعن التدبر والتذكر ، وقالوا : احفظوا كما كنا نحفظ . ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم تصحيف القرءان فى مصحف ، وقالوا : كيف نفعل شيئا مافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخافوا اتكال الناس على المصاحف ، وقالوا : نترك القرءان يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم ، حتى أشار عمر رضى الله عنه وبقية الصحابة بكَتْب القرءان ، خوفا من تخاذل الناس وتكاسلهم ، وحذرا من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع اليه فى كلمة أو قراءة من المتشابهات ، فانشرح صدر أبى بكر رضى الله عنه لذلك ، فجمع القرءان فى مصحف واحد . وكان أحمد بن حنبل ينكر على مالك فى تصنيفه الموطأ ، ويقول : ابتدع مالم تفعله الصحابة رضى الله عنهم

وقيل : أول كتاب صنف فى الاسلام كتاب ابن جريج فى الآثار ، وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضى الله عنهم بمكة ، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن ، جمع فيه سننا مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جامع سفيان الثورى .

ثم فى القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام ، وكثر الخوض فى الجدال ، والغوص فى إبطال المقالات ، ثم مال الناس اليه وإلى القصص والوعظ بها ، فأخذ علم اليقين فى الاندراس من ذلك الزمان ، فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب ، والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان ، وأعرض عن ذلك إلا الأقلون ، فصار يسمى المجادل المتكلم عالما ، والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالما ، وهذا لأن العوام هم المستمعون اليهم ، فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره ، ولم تكن سيرة الصحابة رضى الله عنهم وعلومهم ظاهرةً عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم ، فاستمر عليهم اسم العلماء ، وتوارث اللقب خلف عن سلف ، وأصبح

علم الآخرة مطويا، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم : كانوا إذا قيل لهم فلان أعلم أم فلان ، يقولون: فلان أكثر علما ، وفلان أكثر كلاما، فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام . هكذا ضعف الدين فى قرون سالفة ، فكيف الظن بزمانك هذا ؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الانكار يستهدف لنسبته إلى الجنون، فالأولى أن يشتغل الانسان بنفسه ويسكت

ومنها أن يكون شديد التوقى من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور ، فلا يغرنّه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم ، وليكن حريصا على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم ، وما كان فيه أكثر همهم : أكان فى التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوصايا وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم فى العشرة ، أم كان فى الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجليله، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان ، إلى غير ذلك من علوم الباطن

واعلم تحقيقا أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف ، فمنهم أخذ الدين ، ولذلك قال على رضى الله عنه : خيرنا أتبعنا لهذا الدين لما قيل له : خالفت فلانا . فلا ينبغى أن يكترث بمخالفة أهل العصر فى موافقة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان الناس رأوا رأيا فيما هم فيه لميل طباعهم اليه ، ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة ، فادّعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه . ولذلك قال الحسن : محدثان أحدثا فى الاسلام : رجل ذو رأى سىء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ، ومترَفٌ يعبد الدنيا،لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب ، فارفضوهما إلى النار ، وإن رجلا أصبح فى هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه ، وصاحب هوى يدعوه إلى هواه ، وقد عصمه الله تعالى منهما ، يحنّ إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتفى آثارهم ، متعرض لأجر عظيم ، فكذلك كونوا

وقد روى عن ابن مسعود موقوفا ومسندا(١) أنه قال : « إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَانِ : الْكَلَامُ

---

(١) حديث ابن مسعود إنما هما اثنتان الكلام والهدى ـ الحديث : ابن ماجه

وَالْهُدَى ، فَأَحْسَنُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ تعالَى ، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، أَلَا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ شَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، أَلَا لَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ ، أَلَا كُلُّ مَاهُوَ آتٍ قَرِيبٌ ، أَلَا إِنَّ الْبَعِيدَ مَالَيْسَ بِآتٍ »

وفي خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ وَأَنْفَقَ مِنْ مَالٍ اكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكَمِ ، وَجَانَبَ أَهْلَ الزَّلَلِ وَالْمَعْصِيَةِ ، طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ، وَصَلَحَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، طُوبَى لِمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَوَسِعَتْهُ السُّنَّةُ وَلَمْ يَعْدُهَا إِلَى بِدْعَةٍ »

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : حُسن الهدى فى آخر الزمان خير من كثير من العمل ، وقال : أنتم فى زمان خيركم فيه المسارع فى الأمور ، وسيأتى بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت المتوقف لكثرة الشبهات . وقد صدق ، فمن لم يتوقف فى هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه ، هلك كما هلكوا . وقال حذيفة رضى الله عنه : أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى ، وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى ، وإنكم لا تزالون بخير ما عرفتم الحق وكان العالم فيكم غير مستخف به . ولقد صدق ، فان أكثر معروفات هذه الأعصار منكرات فى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، إذ من غرر المعروفات فى زماننا تزيين المساجد وتنجيدها ، وإنفاق الأموال العظيمة فى دقائق عماراتها ، وفرش البسط الرفيعة فيها

ولقد كان يعد فرش البوارى فى المسجد بدعة . وقيل إنه من محدثات الحجاج ، فقد كان الأولون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزا

---

(١) حديث طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق مالا اكتسبه ـ الحديث : أبو نعيم من حديث الحسين ابن على بسند ضعيف والبزار من حديث أنس أول الحديث وآخره ، والطبرانى والبيهقى من حديث ركب المصرى وسط الحديث وكلها ضعيفة .

وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجلّ علوم أهل الزمان ، ويزعمون أنه من أعظم القربات . وقد كان من المنكرات

ومن ذلك التلحين فى القرءان والأذان

ومن ذلك التعسف فى النظافة والوسوسة فى الطهارة ، وتقدير الأسباب البعيدة فى نجاسة الثياب ، مع التساهل فى حل الأطعمة وتحريمها ؛ إلى نظائر ذلك

ولقد صدق ابن مسعود رضى الله عنه حيث قال : أنتم اليوم فى زمانٍ الهوى فيه تابع للعلم ، وسيأتى عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى . وقد كان أحمد بن حنبل يقول: تركوا العلم وأقبلوا على الغرائب ، ماأقل العلم فيهم ! والله المستعان . وقال مالك بن أنس رحمه الله : لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم ، ولم يكن العلماء يقولون : حرام ولا حلال ، ولكن أدركتهم يقولون : مستحب ومكروه . ومعناه أنهم كانوا ينظرون فى دقائق الكراهة والاستحباب ، فأما الحرام فكان فحشه ظاهرا . وكان هشام بن عروة يقول : لا تسألوهم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم فانهم قد أعدوا له جوابا ، ولكن سلوهم عن السنة فانهم لايعرفونها . وكان أبو سليمان الدارانى رحمه الله يقول :لاينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمع به فى الأثر فيحمدالله تعالى إذ وافق مافى نفسه. وإنما قال هذا لأن ماقد أبدع من الآراء قد قرع الأسماع وعلق بالقلوب ، وربمايشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقا . فيحتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار . ولهذا لما أحدث مروان المنبر فى صلاة العيد عند المصلى قام اليه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه فقال: يامروان ماهذه البدعة ؟ فقال: إنها ليست ببدعة ، إنها خير مما تعلم ، إن الناس قد كثروا فاردت أن يبلغهم الصوت ، فقال أبو سعيد : والله لاتأتون بخير مما أعلم أبدا ، ووالله لاصليت وراءك اليوم ! وإنما أنكر ذلك عليه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « كَانَ يَتَوَكَّأُ فِى خُطْبَةِ الْعِيدِ وَالِاسْتِسْقَاءِ عَلَى قَوْسٍ أَوْ عَصاً » لَا عَلَى الْمِنْبَرِ

---

(١) حديث كان يتوكأ فى خطبة العيد والاستسقاء على قوس او عصا : الطبرانى من حديث البراء ونحوه فى يوم الأضحى ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف ورواه فى الصغير من حديث سعد القرظ كان اذا خطب فى العيدين خطب على قوس واذا خطب فى الجمعة خطب على عصا وهو عند ابن ماجه بلفظ كان اذا خطب فى الحرب خطب على قوس ـ الحديث

وفي الحديث المشهور[١] « مَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِنَا مَالَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » . وفي خبر آخر : « مَنْ[٢] غَشَّ أُمَّتِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » قيل يارسول الله : وما غش أمتك ؟ قال « أَنْ يَبْتَدِعَ بِدْعَةً يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَيْهَا » وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكًا يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ: مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَمْ تَنَلْهُ شَفَاعَتُهُ » ومثال الجاني على الدين بابداع مايخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبا مثال من عصى الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معيّنة ،وذلك قد يغفر له؛ فأما قلب الدولة فلا . وقال بعض العلماء : ماتكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء ، وماسكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف . وقال غيره : الحق ثقيل من جاوزه ظلم ، ومن قصر عنه عجز، ومن وقف معه اكتفى . وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « عَلَيْكُمْ بِالنَّمَطِ الْأَوْسَطِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ الْعَالِي وَيَرْتَفِعُ إِلَيْهِ التَّالِي »

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها ، قال الله تعالى : (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا) وقال تعالى: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) . فكل ما أحدث بعد الصحابة رضى الله عنهم مما جاوز قدر الضرورة والحاجة ،فهو من اللعب واللهو

وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده في وقت الصحابة رضى الله عنهم فرجعوا اليه محسورين ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء : ما نصيب منهم شيئا وقد أتعبونا، فقال : إنكم لا تقدرون عليهم : قد صحبوا نبيهم ، وشهدوا تنزيل ربهم ، ولكن سيأتى بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم . فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا اليه منكسين ، فقالوا : ما رأينا أعجب من هؤلاء :نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب فاذا كان آخر النهار

---

(١) حديث من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد : متفق عليه من حديث عائشة بلفظ :في أمرنا ماليس منه . وعند أبى داود فيه

(٢) حديث من غش أمتى فعليه لعنة الله ـ الحديث :الدارقطنى فى الافراد من حديث أنس بسند ضعيف جداً

(٣) حديث إن لله ملكا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعته: لم أجد له أصلا

(٤) حديث عليكم بالنمط الأوسط ـ الحديث : أبو عبيد في غريب الحديث موقوفا على على بن أبى طالب ولم أجده مرفوعا

أخذوا فى الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات ، فقال : إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئا لصحة توحيدهم ، واتباعهم لسنة نبيهم ، ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تقر أعينكم بهم ، تلعبون بهم لعبا ، وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم ، إن استغفروا لم يغفر لهم ، ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات . قال : فجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع ، فاستحلوها ، واتخذوها دينا ، لا يستغفرون الله منها ، ولا يتوبون عنها ، فسلط عليهم الأعداء ، وقادوهم أين شاءوا

فان قلت : من أين عَرَف قائلُ هذا ماقاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدّثه بذلك؟

فاعلم أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار الملكوت ، تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون ، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة ، وتارة فى اليقظة على سبيل كشف المعانى بمشاهدة الأمثلة كما يكون فى المنام ، وهذا أعلى الدرجات ، وهى من درجات النبوّة العالية ، كما أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة

فإياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ماجاوز حد قصورك ، ففيه هلك المتحذلقون من العلماء ، الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول . فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى . ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء ، وكان خارجا عن الدين بالكلية . قال بعض العارفين : إنما انقطع الأبدال فى أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور ، لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت ، لأنهم عندهم جهال بالله تعالى ، وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء . قال سهل التُّسْتَرى رضى الله عنه : إن من أعظم المعاصى الجهل بالجهل ، والنظر إلى العامة ، واستماع كلام أهل الغفلة ، وكل عالم خاض فى الدنيا فلا ينبغى أن يصغى إلى قوله ، بل ينبغى أن يتهم فى كل مايقول ، لأن كل إنسان يخوض فيما أحب ، ويدفع مالا يوافق محبوبه . ولذلك قال الله عز وجل (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) . والعوام العصاة أسعد حالا من الجهال بطريق الدين ، المعتقدين أنهم من العلماء ، لأن العامى العاصى معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب ، وهذا الجاهل الظان أنه عالم فان ماهو مشتغل به من العلوم التى هى وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين ، فلا يتوب ولا يستغفر ، بل لا يزال مستمرا عليه إلى الموت

وإذ غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى، وانقطع الطمع من إصلاحهم، فالأسلم لذى الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم، كما سيأتى فى كتاب العزلة بيانه، إن شاء الله تعالى. ولذلك كتب يوسف بن أسباط الى حذيفة المرعشى: ماظنك بمن بقى لايجد أحدا لايذكر الله تعالى معه إلا كان آثما أو كانت مذاكرته معصية، وذلك أنه لايجد أهله؟ ولقد صدق، فان مخالطة الناس لاتنفك عن غيبة أو سماع غيبة، أو سكوت على منكر. وإن أحسن أحواله أن يفيد علما أو يستفيده. ولو تأمل هذا المسكين وعلم أن إفادته لاتخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة، علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة الى طلب الدنيا، ووسيله الى الشر، فيكون هو معينا له على ذلك؛ وردءاً وظهيرا ومهيئا لأسبابه، كالذى يبيع السيف من قطاع الطريق. فالعلم كالسيف، وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو، ولذلك لايرخص له فى البيع ممن يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق

فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف. فكن أحد رجلين: إما متصفا بهذه الصفات، أو معترفا بالتقصير مع الإقرار به. وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن بدلت آلة الدنيا بالدين، وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين، وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين. نعوذ بالله من خدع الشيطان، فبها هلك الجمهور. فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لاتغره الحياة الدنيا، ولا يغره بالله الغرور!

الباب السابع

فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لايحتاج إلى تكلف فى إظهاره، لاسيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل. والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لايشرف ماهو وسيلة السعادة فى الدنيا والآخرة؟

أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل ، حتى إن أعظم البهائم بدنا وأشدها ضراوة وأقواها سطوة اذا رأى صورة الانسان احتشمه وهابه ، لشعوره باستيلائه عليه ، لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « الشَّيْخُ فِي قَوْمِهِ كَالنَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ » وليس ذلك لكثرة ماله ، ولا لكبر شخصه ، ولا لزيادة قوته ، بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله ، ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع ، ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة ، هابوه ، وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوة ، وإن كان ذلك باطنا في نفسه بطون العقل

فشرف العقل مدرك بالضرورة . وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات في ذكر شرفه ، وقد سماه الله نورا في قوله تعالى : (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ) . وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا وحياة ، فقال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا) . وقال سبحانه : (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) . وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل ، كقوله : (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) . وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْقِلُوا عَنْ رَبِّكُمْ وَتَوَاصَوْا بِالْعَقْلِ تَعْرِفُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُنْجِدُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعَاقِلَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ كَانَ دَمِيمَ الْمَنْظَرِ حَقِيرَ الْخَطَرِ دَنِيَّ الْمَنْزِلَةِ رَثَّ الْهَيْئَةِ ، وَإِنَّ الْجَاهِلَ مَنْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ جَمِيلَ الْمَنْظَرِ عَظِيمَ الْخَطَرِ شَرِيفَ الْمَنْزِلَةِ حَسَنَ الْهَيْئَةِ فَصِيحًا نَطُوقًا ، فَالْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ أَعْقَلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّنْ عَصَاهُ ، وَلَا تَغْتَرَّ

﴿ الباب السابع في العقل ﴾

(١) حديث الشيخ في قومه كالنبي في أمته : ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند ضعيف

(٢) حديث يأيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل ـ الحديث : داود بن المحبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة وهو في مسند الحارث بن أبي أسامة عن داود

بتعظيم أهل الدنيا إياكم فإنهم من الخاسرين » . وقال صلى الله عليه وسلم (١) « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال الله عز وجل : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك ، بك آخذ ، وبك أعطي ، وبك أثيب ، وبك أعاقب » .

فان قلت : فهذا العقل إن كان عرضا فكيف خلق قبل الأجسام ؟ وإن كان جوهرا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحيز ؟

فاعلم أن هذا من علم المكاشفة ، فلا يليق ذكره بعلم المعاملة . وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة . وعن أنس رضي الله عنه (٢) قال « أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا ، فقال صلى الله عليه وسلم : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر ، وإنما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم » . وعن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى ، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله » . وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس »

---

(١) حديث أول ما خلق الله العقل قال له أقبل ـ الحديث : الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة باسنادين ضعيفين

(٢) حديث أنس أثنى قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا في الثناء فقال : كيف عقل الرجل الحديث : ابن المحبر في العقل بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً

(٣) حديث عمر ما اكتسب رجل مثل فضل عقل ـ الحديث : ابن المحبر في العقل وعنه الحارث بن أبي أسامة

(٤) حديث إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله الحديث : ابن المحبر من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به . والحديث عند الترمذي مختصر دون قوله ولا يتم ، من حديث عائشة وصححه

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) « لِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ ٱلْمُؤْمِنِ عَقْلُهُ ، فَبِقَدْرِ عَقْلِهِ تَكُونُ عِبَادَتُهُ ، أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ ٱلْفُجَّارِ فِى ٱلنَّارِ : «لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ!» . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لتميم الدارى(٢) : « مَا ٱلسُّؤْدَدُ فِيكُمْ ؟ قَالَ ٱلْعَقْلُ . قَالَ : صَدَقْتَ :سَأَلْتُ رَسُولَ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم كَمَا سَأَلْتُكَ فَقَالَ كَمَا قُلْتَ ، ثم قَالَ : سَأَلْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : مَا ٱلسُّؤْدَدُ فَقَالَ : ٱلْعَقْلُ » وعن البراء بن عازب رضى الله عنه(٣) قال « كَثُرَتْ ٱلْمَسَائِلُ يَوماً عَلَى رَسُول الله صلى الله عليه وسلم فَقَال : يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةً وَمَطِيَّةُ ٱلْمَرْءِ ٱلعَقْلُ ، وَأَحْسَنُكُمْ دَلَالَةً وَمَعْرِفَةً بِٱلْحُجَّةِ أَفْضَلُكُمْ عَقْلاً » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال(٤) « لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ ٱللهِ صلى الله عليه وسلم مِن غَزْوَةِ أُحُدٍ سَمِعَ ٱلنَّاسَ يَقُولُونَ : فُلَانٌ أَشْجَعُ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٌ أَبْلَى مَالَمْ يُبْلِ فُلَانٌ وَنَحْوُ هَذَا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَمَّا هَذَا فَلَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ ، قَالوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ يَارَسُولَ ٱللهِ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَى قَدْرِ مَاقَسَمَ ٱللهُ لَهُمْ مِنَ ٱلْعَقلِ ، وَكَانَت نُصْرَتُهُمْ وَنِيَّتُهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ فَأُصِيبَ مِنْهُمْ مَنْ أُصِيبَ عَلَى مَنَازِلَ شَتَّى ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ ٱقْتَسَمُوا ٱلْمَنَازِلَ عَلَى قَدْرِ نِيَّاتِهِم وَقَدْرِ عُقُولِهِمْ » .

وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال(٥) : « جَدَّ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱجْتَهَدُوا

(١) حديث أبى سعيد لكل شىء دعامة ودعامة المؤمن عقله ـ الحديث : ابن المحبر وعنه الحارث

(٢) حديث عمر أنه قال لتميم الدارى ما السودد فيكم قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : ابن المحبر وعنه الحارث

(٣) حديث البراء كثرت المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يأيها الناس ان لكل شىء مطية ـ الحديث : ابن المحبر وعنه الحارث

(٤) حديث أبي هريرة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان ـ الحديث : ابن المحبر

(٥) حديث البراء بن عازب جد الملائكة واجتهدوا فى طاعة الله بالعقل ـ الحديث ابن المحبر كذلك وعنه الحارث فى مسنده ورواه البغوى فى معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذى رواه ابن المحبر

فِي طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعَقْلِ ، وَجَدَّ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ فَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَوْفَرُهُمْ عَقْلاً » . وعن عائشة رضى الله عنها قالت (١) «قُلْتُ يَارَسُولَ اللَّهِ بِمَ يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا ؟ قَالَ : بِالْعَقْلِ ، قُلْتُ : وَفِي الْآخِرَةِ ؟ قَالَ : بِالْعَقْلِ ، قُلْتُ أَلَيْسَ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِمْ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يَاعَائِشَةُ : وَهَلْ عَمِلُوا إِلَّا بِقَدْرِ مَا أَعْطَاهُمْ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْعَقْلِ ؟ فَبِقَدْرِ مَا أُعْطُوا مِنَ الْعَقْلِ كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وَبِقَدْرِ مَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ »

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « لِكُلِّ شَيْءٍ آلَةٌ وَعُدَّةٌ ، وَإِنَّ آلَةَ الْمُؤْمِنِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ وَمَطِيَّةُ الْمَرْءِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ الدِّينِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ غَايَةٌ وَغَايَةُ الْعِبَادِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ دَاعٍ وَدَاعِي الْعَابِدِينَ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ تَاجِرٍ بِضَاعَةٌ وَبِضَاعَةُ الْمُجْتَهِدِينَ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ أَهْلِ بَيْتٍ قَيِّمٌ وَقَيِّمُ بُيُوتِ الصِّدِّيقِينَ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ خَرَابٍ عِمَارَةٌ وَعِمَارَةُ الْآخِرَةِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ عَقِبٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَيُذْكَرُ بِهِ وَعَقِبُ الصِّدِّيقِينَ الَّذِي يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ وَيُذْكَرُونَ بِهِ الْعَقْلُ ، وَلِكُلِّ سَفَرٍ فُسْطَاطٌ وَفُسْطَاطُ الْمُؤْمِنِينَ الْعَقْلُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) : « إِنَّ أَحَبَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ نَصَبَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَصَحَ لِعِبَادِهِ وَكَمَلَ عَقْلُهُ وَنَصَحَ نَفْسَهُ فَأَبْصَرَ ، وَعَمِلَ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فَأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ». وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « أَتَمُّكُمْ عَقْلاً أَشَدُّكُمْ لِلَّهِ تَعَالَى خَوْفًا وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَرًا ، وَإِنْ كَانَ أَقَلَّكُمْ تَطَوُّعًا »

---

(١) حديث عائشة قلت يارسول الله بأى شيء يتفاضل الناس فى الدنيا قال بالعقل ـ الحديث ابن المحبر والترمذى الحكيم فى النوادر نحوه

(٢) حديث ابن عباس لكل شيء آلة وعدة وان آلة المؤمن العقل ـ الحديث : ابن المحبر وعنه الحارث

(٣) حديث ان أحب المؤمنين الى الله من نصب فى طاعة الله ـ الحديث ابن المحبر من حديث ابن عمر ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس باسناد آخر ضعيف

(٤) حديث أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا ـ الحديث : ابن المحبر من حديث أبى قتادة

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا فى حد العقل وحقيقته ، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة ، فصار ذلك سبب اختلافهم

والحق الكاشف للغطاء فيه : أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان ، كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدة ، وما يجرى هذا المجرى ، فلا ينبغى أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد ، بل يفرد كل قسم بالكشف عنه

فالأول — الوصف الذى يفارق الانسان به سائر البهائم ، وهو الذى استعدّ به لقبول العلوم النظرية ، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية ، وهو الذى أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال فى حد العقل : إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية ، وكأنه نور يقذف فى القلب به يستعد لادراك الأشياء . ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل الى مجرد العلوم الضرورية ، فان الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم . وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والادراكات الحسية ، فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية . ولو جاز أن يسوى بين الانسان والحمار فى الغريزة والادراكات الحسية ، فيقال : لافرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق فى الانسان علوما وليس يخلقها فى الحمار والبهائم ، لجاز أن يسوّى بين الحمار والجماد فى الحياه ، ويقال: لافرق إلا أن الله عز وجل يخلق فى الحمار حركاتٍ مخصوصةً بحكم إجراء العادة ، فانه لو قدر الحمار جمادا ميتا لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد ، وكما وجب أن يقال : لم يكن مفارقته للجماد فى الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة ، فكذا مفارقة الانسان البهيمة فى إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل ، وهو كالمرآة التى تفارق غيرها من الأجسام فى حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهى الصقالة ، وكذلك العين تفارق الجبهة فى صفات وهيئات بها استعدت للرؤية . فنسبة هذه الغريزة الى العلوم كنسبة العين الى الرؤية ، ونسبة القرءان والشرع إلى هذه الغريزة فى سياقها الى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس الى البصر ، فهكذا ينبغى أن تفهم هذه الغريزة

الثانى ـ هى العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات : كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الشخص الواحد لايكون فى مكانين فى وقت واحد ، وهو الذى عناه بعض المتكلمين حيث قال فى حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات . وهو أيضا صحيح فى نفسه ، لأن هذه العلوم موجودة ، وتسميتها عقلا ظاهر ، وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال : لا موجود إلا هذه العلوم

الثالث ـ علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال ، فان من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل فى العادة ، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبى غمر جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا

الرابع ـ أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها ، فاذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا ، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة ، وهذه أيضا من خواص الانسان التى بها يتميز عن سائر الحيوان . فالأول هو الأس والسنخ والمنبع ، والثانى هو الفرع الأقرب اليه ، والثالث فرع الأول والثانى ، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب ، والرابع هو الثمرة الأخيرة وهى الغاية القصوى ، فالأولان بالطبع ، والأخيران بالاكتساب ، ولذلك قال علىّ كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع
كما لاتنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم :(١) «مَاخَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقْلِ » والأخير هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِذَا تَقَرَّبَ النَّاسُ بِأَبْوَابِ الْبِرِّ

(١) حديث ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل : الترمذى الحكيم فى النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة

(٢) حديث اذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك : أبو نعيم فى الحلية من حديث على اذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها الى ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب . واسناده ضعيف

وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَتَقَرَّبْ أَنْتَ بِعَقْلِكَ » وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى الدرداء رضى الله عنه[١] « أزْدَدْ عَقْلاً تَزْدَدْ مِنْ رَبِّكَ قُرْباً » فَقَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَكَيْفَ لِي بِذَلِكَ ؟ فقال : « اُجْتَنِبْ مَحَارِمَ اللهِ تَعَالَى وَأَدِّ فَرَائِضَ اللهِ سُبْحَانَهُ تَكُنْ عَاقِلاً ، وَاعْمَلْ بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الأَعْمَالِ تَزْدَدْ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا رِفْعَةً وَكَرَامَةً وَتَنَلْ فِي آجِلِ الْعُقْبَى بِهَا مِنْ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ الْقُرْبَ وَالْعِزَّ » وعن سعيد بن المسيب[٢] « أَنَّ عُمَرَ وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ وَأَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ دَخَلُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا : يَارَسُولَ اللهِ مَنْ أَعْلَمُ النَّاسِ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الْعَاقِلُ . قَالُوا: فَمَنْ أَعْبَدُ النَّاسِ ؟ قَالَ : الْعَاقِلُ . قَالُوا : فَمَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ؟ قَالَ: الْعَاقِلُ . قَالُوا : أَلَيْسَ الْعَاقِلُ مَنْ تَمَّتْ مُرُوءَتُهُ وَظَهَرَتْ فَصَاحَتُهُ وَجَادَتْ كَفُّهُ وَعَظُمَتْ مَنْزِلَتُهُ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيسا ذليلا ، قال صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر[٣] « إِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَصَدَّقَ رُسُلَهُ وَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ » .

ويشبه أن يكون أصل الاسم فى أصل اللغة لتلك الغريزة وكذا فى الاستعمال ، وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشىء بثمرته ، فيقال : العلم هو الخشية ، والعالم من يخشى الله تعالى ، فإن الخشية ثمرة العلم ، فتكون كالمجاز لغير تلك الغريزة ، ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة . والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة ، والاسم يطلق على جميعها ، ولا خلاف فى وجود جميعها إلا فى القسم الأول . والصحيح وجودها ، بل هى الأصل ، وهذه العلوم كأنها مضمنة فى تلك الغريزة بالفطرة ، ولكن تظهر فى الوجود إذا جرى سبب

---

(١) حديث ازدد عقلا تزدد من ربك قربا ـ الحديث : قاله لأبى الدرداء : ابن المحبر ومن طريقه الحارث ابن أبي أسامة والترمذى الحكيم في النوادر .

(٢) حديث ابن المسيب أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال العاقل ـ الحديث : ابن المحبر

(٣) حديث إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته : ابن المحبر من حديث سعيد بن المسيب مرسلا وفيه قصة

يخرجها الى الوجود ، حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج ، وكأنها مستكنة فيها فظهرت . ومثاله الماء فى الأرض ، فانه يظهر بحفر البئر ، ويجتمع ويتميز بالحس ، لا بأن يساق اليها شيء جديد . وكذلك الدهن فى اللوز ، وماء الورد فى الورد ، ولذلك قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى) فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة ، فانهم انقسموا فى إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مقرّ والى جاحد ، ولذلك قال تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) معناه : إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) أى كل آدمى فطر على الايمان بالله عز وجل ، بل على معرفة الأشياء على ماهى عليه ، أعنى أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للادراك

ثم لما كان الايمان مركوزا فى النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين : إلى من أعرض فنسى وهم الكفار ، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها . ولذلك قال عز وجل : (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ) (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) . وتسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد ، فكأن التذكر ضربان : أحدهما أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود فى قلبه لكن غابت بعد الوجود ، والآخر أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة . وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ، ثقيلة على من مستروحه السماع والتقليد دون الكشف والعيان ، ولذلك تراه يتخبط فى مثل هذه الآيات ، ويتعسف فى تأويل التذكر وإقرار النفوس أنواعا من التعسفات ، ويتخايل اليه فى الأخبار والآيات ضروب من المناقضات ، وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر اليها بعين الاستحقار ، ويعتقد فيها التهافت . ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل دارا فيعثر فيها بالأوانى المصفوفة فى الدار فيقول : ما لهذه الأوانى لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها ؟ فيقال له إنها فى مواضعها وإنما الخلل فى بصرك . فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطمّ منه وأعظم ، إذ النفس كالفارس ، والبدن كالفرس ، وعمى الفارس أضر من عمى الفرس .

ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) وقال تعالى :(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الآية. وسمى ضده عمى، فقال تعالى :(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) وقال تعالى :(وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا). وهذه الأمور التى كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة، وسمى الكل رؤية

وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة ثاقبة، لم يعلق به من الدين إلا قشوره، وأمثلته دون لبابه وحقائقه. فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها

بيان تفاوت النفوس فى العقل

قد اختلف الناس فى تفاوت العقل، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قلّ تحصيله، بل الأولى والأهم المبادرة الى التصريح بالحق

والحق الصريح فيه أن يقال : إن التفاوت يتطرق الى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، فان من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضا استحالة كون الجسم فى مكانين، وكون الشيء الواحد قديما حادثا، وكذا سائر النظائر وكل مايدركه إدراكا محققا من غير شك. وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق اليها

أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات، فلا يخفى تفاوت الناس فيه، بل لايخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة، إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض، ولكن غير مقصور عليه، فان الشاب قد يعجز عن ترك الزنا، واذا كبر وتم عقله قدر عليه، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفا، وقد يكون سببه التفاوت فى العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة، وقد لا يقدر من يساويه فى العقل على ذلك إذا لم يكن

طبيبا وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ، ولكن اذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد ، فيكون الخوف جندا للعقل وعدّة له فى قمع الشهوات وكسرها ، وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصى من الجاهل لقوّة علمه بضرر المعاصى ، وأعنى به العالم الحقيق دون أرباب الطيالسة وأصحاب الهذيان . فان كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع الى تفاوت العقل ، وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلا أيضا ، فانه يقوى غريزة العقل ، فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية اليه . وقد يكون بمجرد التفاوت فى غريزة العقل ، فانها اذا قويت كان قمعها للشهوة لامحالة أشد

وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب ، فتفاوت الناس فيها لا ينكر ، فانهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ، ويكون سببه إما تفاوتا فى الغريزة ، وإما تفاوتا فى الممارسة. فأما الأول وهو الأصل أعنى الغريزة ، فالتفاوت فيه لاسبيل إلى جحده ، فانه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه . ومبادىء إشراقه عند سن التمييز ، ثم لايزال ينمو ويزداد نموا خفى التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة . ومثاله نور الصبح ، فان أوائله يخفى خفاء يشق إدراكه ، ثم يتدرج إلى الزيادة ، إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس

وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر ، والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر ، بل سنة الله عز وجل جارية فى جميع خلقه بالتدريج فى الايجاد ، حتى إن غريزة الشهوة لاتظهر فى الصبي عند البلوغ دفعة وبغتة بل تظهر شيئا فشيئا على التدريج ، وكذلك جميع القوى والصفات. ومن أنكر تفاوت الناس فى هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل

ومن ظن أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادى فهو أخس فى نفسه من آحاد السوادية ، وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس فى فهم العلوم ، ولما انقسموا الى بليد لايفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم ، والى ذكى يفهم بأدنى رمز وإشارة ، والى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم ، كما قال تعالى : (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ) وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام ، إذ يتضح لهم فى بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ، ويعبر عن ذلك بالالهام . وعن مثله

عبّر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال (١) «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي : أَحْبِبْ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ ، وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ » . وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحي الصريح الذى هو سماع الصوت بحاسة الأذن ، ومشاهدة الملك بحاسة البصر ، ولذلك أخبر عن هذا بالنفث فى الروع . ودرجات الوحي كثيرة ، والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة ، بل هو من علم المكاشفة

ولا تظنن أن معرفة درجات الوحي تستدعى منصب الوحي ، إذ لا يبعد أن يعرف الطبيبُ المريضَ درجات الصحة ، ويعلم العالم الفاسقَ درجات العدالة وإن كان خاليا عنها ، فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر ، فلا كل من عرف النبوّة والولاية كان نبيا ولا وليا ، ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيا

وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم ، والى من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم ، والى من لا ينفعه التعليم أيضا ولا التنبيه ، كانقسام الأرض الى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيونا ، والى ما يحتاج الى الحفر ليخرج الى القنوات ، والى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس ، وذلك لاختلاف جواهر الأرض فى صفاتها ، فكذلك اختلاف النفوس فى غريزة العقل . ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت (٢) : يَا رَبَّنَا هَلْ خَلَقْتَ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنَ الْعَرْشِ؟ قَالَ نَعَمْ : الْعَقْلُ، قَالُوا وَمَا بَلَغَ مِنْ قَدْرِهِ ؟ قَالَ هَيْهَاتَ لَا يُحَاطُ بِعِلْمِهِ ، هَلْ لَكُمْ عِلْمٌ بِعَدَدِ الرَّمْلِ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنِّي خَلَقْتُ الْعَقْلَ أَصْنَافًا شَتَّى كَعَدَدِ الرَّمْلِ ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّةً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ حَبَّتَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ الثَّلَاثَ وَالْأَرْبَعَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ فَرَقًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ وَسْقًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْطِيَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»

---

(١) ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه ـ الحديث : الشيرازى في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه والطبرانى فى الأصغر والأوسط من حديث على وكلاهما ضعيف

(٢) حديث ابن سلام سئل النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت يارب هل خلقت شيئا أعظم من العرش ـ الحديث : ابن المحبر من حديث أنس بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصرا

فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول ؟

فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول الى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والالزامات ، وهو صنعة الكلام ، فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم فى التسمية ، إذ كان ذلك لا ينمحى عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه فى القلوب ، فذموا العقل والمعقول ، وهو المسمى به عندهم . فأما نور البصيرة الباطنة التى بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه ؟ وإن ذم فما الذى بعده يحمد ؟ فان كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع ؟ فان علم بالعقل المذموم الذى لا يوثق به فيكون الشرع أيضا مذموما . ولا يلتفت إلى من يقول: إنه يدرك بعين اليقين و نور الايمان لا بالعقل ، فانا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين و نور الايمان ، وهى الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمى عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور

وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس فى الألفاظ . فهذا القدر كاف فى بيان العقل . والله أعلم

تم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنّه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء ، يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد . والحمد لله وحده أولاً وآخراً

كتاب قواعد العقائد

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

فنقول وبالله التوفيق :

الحمد لله المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، ذى العرش المجيد ، والبطش الشديد ، الهادى صفوة العبيد ، الى المنهج الرشيد ، والمسلك السديد ، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد ، السالك بهم الى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد ، المتجلى لهم فى ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التى لايدركها إلامن ألقى السمع وهوشهيد ، المعرّف إياهم أنه فى ذاته واحدلاشريك له ، فرد لامثيل له ، صمدلاضد له ، منفردلاندّ له ، وأنه واحد قديم لاأول له ، أزلى لابداية له ، مستمرالوجود لا آخر له ، أبدىّ لانهاية له ، قيوم لاانقطاع له ، دائم لاانصرام له ، لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال ، لايقضى عليه بالانقضاء والانفصال ، بتصرم الآباد وانقراض الآجال ، بل هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم

التنزيه :

وأنه ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، وأنه لا يماثل الأجسام ، لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام ، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، ولابعرض ولاتحله الأعراض ، بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شىء ولا هو مثل شىء ، وأنه لا يحده المقدار ، ولاتحويه الأقطار ، ولاتحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات ، وأنه

مستو على العرش على الوجه الذى قاله ، وبالمعنى الذى أراده ، استواء منزها عن المماسة والاستقرار، والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فى قبضته ، وهو فوق العرش والسماء ، وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى ، فوقية لاتزيده قربا إلى العرش والسماء ، كما لاتزيده بعدا عن الأرض والثرى ، بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء ، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شىء شهيد ، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام ، وأنه لا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء ، تعالى عن أن يحويه مكان ، كما تقدس عن أن يحده زمان ، بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، وأنه بائن عن خلقه بصفاته ، ليس فى ذاته سواه ، ولا فى سواه ذاته ، وأنه مقدس عن التغير والانتقال ، لا تحله الحوادث ، ولا تعتريه العوارض ، بل لا يزال فى نعوت جلاله منزها عن الزوال ، وفى صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال ، وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول ، مرئى الذات بالأبصار ، نعمة منه ولطفا بالأبرار فى دار القرار ، وإتماما منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم

الحياة والقدرة :

وأنه تعالى حى قادر ، جبار قاهر ، لايعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، وأنه ذو الملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان والقهر ، والخلق والأمر ، والسموات مطويات بيمينه ، والخلائق مقهورون فى قبضته ، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد بالايجاد والابداع ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ، لا تحصى مقدوراته ، ولا تتناهى معلوماته

العلم :

وأنه عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات ، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل يعلم دبيب النملة السوداء ، على

الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذرّ فى جوّ الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به فى أزل الآزال ، لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال

الإرادة :

وأنه تعالى مريد للكائنات مدبر للحادثات ، فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسران ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، إلا بقضائه وقدره ، وحكمته ومشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد ، لا رادّ لأمره ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوّة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته ، فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك ، وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا بها ، مريداً فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدّرها فوجدت فى أوقاتها كما أراده فى أزله من غير تقدّم ولا تأخر ، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير ، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ، ولا تربص زمان ، فلذلك لم يشغله شان عن شان

السمع والبصر :

وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئىّ وإن دقّ ، ولا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق .

الكلام :

وأنه تعالى متكلم آمرٌ ناهٍ ، واعدٌ متوعد ، بكلام أزلى قديم قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع

باطباق شفة أو تحريك لسان ، وأن القرءان والتوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام ، وأن القرءان مقروء بالألسنة ، مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى القلوب ، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى ، لا يقبل الانفصال والافتراق ، بالانتقال إلى القلوب والأوراق ، وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى فى الآخرة من غير جوهر ولا عرض ، وإذا كانت له هذه الصفات كان حياً ، عالما ، قادراً ، مريدا ، سميعا ، بصيراً ، متكلماً ، بالحياة ، والقدرة ، والعلم ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، لا بمجرد الذات

الأفعال :

وأنه سبحانه وتعالى لاموجود سواه إلا وهو حادث بفعله ، وفائض من عدله ، على أحسن الوجوه وأكملها ، وأتمها وأعدلها ، وأنه حكيم فى أفعاله ، عادل فى أقضيته ، لا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصوّر منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره ، ولا يتصوّر الظلم من الله تعالى ، فانه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ، فكل ما سواه من إنس وجن ، وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان ، ونبات وجماد وجوهر وعرض ، ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا ، وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئا ، إذ كان فى الأزل موجوداً وحده ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعد ذلك إظهاراً لقدرته ، وتحقيقا لما سبق من إرادته ، ولما حق فى الأزل من كلمته ، لا لافتقاره اليه وحاجته ، وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتطول بالانعام والاصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان ، إذ كان قادراً على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب . ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ، ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما ، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد ، لا بحكم الاستحقاق واللزوم له ، إذ لا يجب عليه لأحد فعل ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا يجب لأحد عليه حق ، وأن حقه فى الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة ، فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به

معنى الكلمة الثانية وهي الشهادة للرسل بالرسالة

وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والانس، فنسخ بشريعته الشرائع إلا ماقرره منها، وفضّله على سائر الأنبياء، وجعله سيد البشر، ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد، وهو قول لاإله إلا الله مالم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك محمد رسول الله، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة، وأنه لايتقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت، وَأَوَّلُهُ سُؤَالُ [١] مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وَهُمَا شَخْصَانِ مُهِيبَانِ هَائِلاَنِ يُقْعِدَانِ الْعَبْدَ فِي قَبْرِهِ سَوِيًّا ذَا رُوحٍ وَجَسَدٍ فَيَسْأَلاَنِهِ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ، وَيَقُولاَنِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهُمَا [٢] فَتَّانَا الْقَبْرِ [٣]، وَسُؤَالُهُمَا أَوَّلُ فِتْنَةٍ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ [٤] بِعَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ وَحُكْمُهُ عَدْلٌ عَلَى الْجِسْمِ وَالرُّوحِ عَلَى مَا يَشَاءُ [٥]، وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْمِيزَانِ ذِي الْكَفَّتَيْنِ وَاللِّسَانِ وَصِفَتُهُ فِي الْعِظَمِ أَنَّهُ مِثْلُ طَبَقَاتِ

---

(١) حديث سؤال منكر ونكير: الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أبي هريرة اذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير. وفي الصحيحين من حديث أنس أن العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وأنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه ــ الحديث

(٢) حديث انهما فتانا القبر: أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر فتاني القبر فقال عمر: أترد علينا عقولنا ــ الحديث

(٣) حديث ان سؤالهما أول فتنة بعد الموت: لم أجده

(٤) حديث عذاب القبر: أخرجاه من حديث عائشة انكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم ــ الحديث. ولهما من حديث أبي هريرة وعائشة استعاذته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر

(٥) حديث الايمان بالميزان ذي الكفتين واللسان وصفته في العظم انه مثل طباق السموات والارض: البيهقي في البعث من حديث عمر قال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان ــ الحديث. وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ولأبي داود من حديث عائشة أما في ثلاثة مواطن لايذكر أحد أحدا عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، زاد ابن مردويه في تفسيره قالت عائشة أي حي قد علمنا الموازين هي الكفتان فيوضع في هذه الشيء ويوضع في هذه الشيء فيرجح احداهما وتخف الاخرى والترمذي وحسنه من حديث أنس واطلبني عند الميزان. ومن حديث عبد الله بن عمر في حديث البطاقة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ــ الحديث. وروى ابن شاهين في كتاب السنة عن ابن عباس كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها

السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى ، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل ، تحقيقا لتمام العدل ، وتوضع صحائف الحسنات فى صورة حسنة فى كفة النور ، فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله ، وتطرح صحائف السيئات فى صورة قبيحة في كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله (١) وَأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ ، وَهُوَ جِسْرٌ مَمْدُودٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ أَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ وَأَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ تَزِلُّ عَلَيْهِ أَقْدَامُ الْكَافِرِينَ بِحُكْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ فَتَهْوِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ وَتَثْبُتُ عَلَيْهِ أَقْدَامُ الْمُؤْمِنِينَ بِفَضْلِ اللهِ فَيُسَاقُونَ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ (٢) وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْحَوْضِ الْمَوْرُودِ : حَوْضِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم يَشْرَبُ منه المؤمنون قبل دخول الجنة وَبَعْدَ جَوَازِ الصِّرَاطِ (٣) مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا عَرْضُهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ حَوْلَهُ أَبَارِيقُ عَدَدُهَا بِعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ (٤) فِيهِ مِيزَابَانِ يَصُبَّانِ فِيهِ مِنَ

---

(١) حديث الايمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر : الشيخان من حديث أبى هريرة ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم . ولهما من حديث أبى سعيد ثم يضرب الجسر على جهنم زاد مسلم قل أبو سعيد إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقى فى الشعب والبعث من حديث أنس وضعفه وفى البعث من رواية عبيد بن عمير مرسلا ومن قول ابن مسعود الصراط كحد السيف وفى آخر الحديث مايدل على أنه مرفوع

(٢) حديث الايمان بالحوض وانه يشرب منه المؤمنون : مسلم من حديث أنس فى نزول «إنا أعطيناك الكوثر» هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم . ولهما من حديث ابن مسعود وعقبة ابن عامر وجندب وسهل بن سعد أنا فرطكم على الحوض ومن حديث ابن عمر أمالكم حوض كما بين جرباء وأذرح وقال الطبرانى كما بينكم وبين جرباء وأذرح وهو الصواب وذكر الحوض فى الصحيح من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبى ذر وحابس بن سمرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء

(٣) حديث من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا عرضه مسيرة شهر أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عدد نجوم السماء من حديث عبد الله بن عمرو ولهما من حديث أنس فيا من الأباريق كعدد نجوم السماء . وفى رواية لمسلم أكثر من عدد نجوم السماء

(٤) حديث فيه ميزابان يصبان من الكوثر : مسلم من حديث ثوبان يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق

الْكَوْثَرَ (١) وَأَنْ يُؤْمِنَ بِالْحِسَابِ وَتَفَاوُتِ النَّاسِ فِيهِ إِلَى مُنَاقَشٍ فِي الْحِسَابِ وَإِلَى مُسَامَحٍ فِيهِ، وَإِلَى مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَهُمُ الْمُقَرَّبُونَ، فَيَسْأَلُ اللهُ تَعَالَى (٢) مَنْ شَاءَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَمَنْ شَاءَ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْ تَكْذِيبِ الْمُرْسَلِينَ (٣) وَيَسْأَلُ الْمُبْتَدِعَةَ عَنِ السُّنَّةِ (٤) وَيَسْأَلُ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْأَعْمَالِ، وَأَنْ يُؤْمِنَ (٥) بِإِخْرَاجِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ الْانْتِقَامِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي جَهَنَّمَ مُوَحِّدٌ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى، فَلَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ

---

(١) حديث الايمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه الي مناقش فى الحساب ومسامح فيه والي من يدخل الجنة بغير حساب: البيهقى فى البعث من حديث عمر فقال يا رسول الله ما الايمان قل أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت وبالبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدر كله ـ الحديث. وهو عند مسلم دون ذكر الحساب. وللشيخين من حديث عائشة من نوقش الحساب عذب قالت قلت أليس يقول الله تعالى « فسوف يحاسب حسابا يسيرا » قال ذلك العرض ولهما من حديث ابن عباس عرضت على الأمم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. ولمسلم من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب زاد البيهقى فى البعث من حديث عمرو بن حزم وأعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر بعده هذه الزيادة فقال فهلا استزدته ؟ قال : قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا قل عمر فهلا استزدته ؟ قل:قد استزدته فأعطانى هكذا وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه الحديث

(٢) حديث سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين : البخارى من حديث أبى سعيد يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يارب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته الحديث . ولابن ماجه يجيء النبي يوم القيامة ـ الحديث وفيه فيقال هل بلغت قومك ـ الحديث

(٣) حديث سؤال المبتدعة عن السنة: ابن ماجه من حديث عائشة من تكلم بشيء من القدر سئل عنه يوم القيامة . ومن حديث أبى هريرة مامن داع يدعو الى شيء الا وقف يوم القيامة لازما لدعوة مادعا اليه وان دعا رجل رجلا واسنادهما ضعيف

(٤) حديث سؤال المسلمين عن الاعمال : أصحاب السنن من حديث أبي هريرة إن أول مايحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ـ الحديث . وسيأتي فى الصلاة

(٥) حديث اخراج الموحدين من النار حتى لايبقي فيها موحد بفضل الله سبحانه : الشيخان من حديث أبى هريرة فى حديث طويل حتي اذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لايشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لاإله الا الله ـ الحديث

مُوَحِّدٍ، وأنْ يُؤْمِنَ (١) بِشَفَاعَةِ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْعُلَمَاءِ ثُمَّ الشُّهَدَاءِ ثُمَّ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى حَسَبِ جَاهِهِ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ تعالى، ومن بقى من المؤمنين ولم يكن له شفيع، أُخْرِجَ بفضل الله عزّ وجل، فَلَا يَخْلُدُ فِي النَّارِ مؤمن بل يَخْرُجُ منها مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنْ يَعْتَقِدَ فَضْلَ الصَّحَابَةِ رضى الله عنهم وَتَرْتِيبَهُمْ، وَأَنَّ (٢) أَفْضَلَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثم على رضى الله عنهم، (٣) وأن يُحْسِنَ الظَّنَّ بجميع الصحابة، ويُثْنِي عليهم كما أثنى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين

فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار. فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به كان من أهل الحق وعصابة السنة، وفارق رَهْط الضلال وحزب البدعة. فنسأل الله كمال اليقين، وحسن الثبات فى الدين لنا ولكافة المسلمين برحمته، إنه أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى

الفصل الثانى

فى وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلم أن ما ذكرناه فى ترجمة العقيدة ينبغى أن يقدم إلى الصبى فى أول نشوه ليحفظه حفظا

---

(١) حديث شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقى من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد فى النار مؤمن بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء وقد تقدم فى العلم. وللشيخين من حديث أبي سعيد الخدرى من وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من الايمان فأخرجوه وفى رواية من خير وفيه فيقول الله تعالي شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا ارحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط ـ الحديث:

(٢) حديث أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على البخارى من حديث ابن عمر قال كنا نخير بين الناس فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر ابن الخطاب ثم عثمان بن عفان ولأبى داود كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى أفضل أمة النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضى الله عنهم زاد الطبرانى ويسمع ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ولا ينكره

(٣) حديث أحسان الظن بجميع الصحابة والثناء عليهم الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل الله الله فى أصحابى لاتتخذوهم غرضا بعدى وللشيخين من حديث أبى سعيد لا تسبوا أصحابى. وللطبرانى من حديث ابن مسعود اذا ذكر أصحابي فأمسكوا

ثم لا يزال ينكشف له معناه فى كبره شيئا فشيئا ، فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والايقان والتصديق به ، وذلك مما يحصل فى الصبي بغير برهان . فمن فضل الله سبحانه على قلب الانسان أن شرحه فى أول نشوئه للايمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان ، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد والتقليد المحض ، نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف فى الابتداء ، على معنى أنه يقبل الازالة بنقيضه لو ألقى اليه ، فلابد من تقويته وإثباته فى نفس الصبي والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل ، وليس الطريق فى تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام ، بل يشتغل بتلاوة القرءان وتفسيره ، وقراءة الحديث ومعانيه ، ويشتغل بوظائف العبادات ، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرءان وحججه ، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها ، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها ، وبما يسرى اليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم ، وسيماهم وسماعهم وهيآتهم فى الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له ، فيكون أول التلقين كإلقاء بذر فى الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء

وينبغى أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة ، فان ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده ، وما يفسده أكثر مما يصلحه ، بل تقويته بالجدل تضاهى ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب ، والمشاهدة تكفيك فى هذا بيانا ، فناهيك بالعيان برهانا

فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين ، فترى اعتقاد العامى فى الثبات كالطود الشامخ لا تحركه الدواهي والصواعق ، وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل فى الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا ، الا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليداً ، كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً اذ لا فرق في التقلد بين تعلم الدليل أو تعلم المدلول ، فتلقين الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه

ثم الصبي اذا وقع نشوه على هذه العقيدة ان اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها ، ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق ، إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلا . وإن

أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة ، وساعده التوفيق حتي اشتغل بالعمل ، ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى ، واشتغل بالرياضة والمجاهدة ، انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهى يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة تحقيقا لوعده عز وجل إذ قال : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) . وهو الجوهر النفيس الذى هو غاية إيمان الصدّيقين والمقربين ، واليه الاشارة بالسر الذى وقر فى صدر أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه حيث فضّل به الخلق . وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن ، فى النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى، وفى الاستضاءة بنور اليقين ، وذلك كتفاوت الخلق فى أسرار الطب والفقه وسائر العلوم ، إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة فى الذكاء والفطنة وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه

مسئلة

فان قلت : تعلُّم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أومندوب اليه ؟

فاعلم أن للناس فى هذا غلوا وإسرافا فى أطراف : فمن قائل إنه بدعة وحرام ، وإن العبد إن لقى الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خيرٌ له من أن يلقاه بالكلام . ومن قائل أنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان ، وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات ، فانه تحقيق لعلم التوحيد ، ونضال عن دين الله تعالي

والى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف . قال ابن عبد الاعلى رحمه الله : سمعت الشافعى رضى الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد وكان من متكلمى المعتزلة يقول : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه . وقال أيضا : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط ، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر فى الكلام . وحكى الكرابيسى أن الشافعي رضى الله عنه سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه أخزاهم الله . ولما مرض الشافعى رضى الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له من أنا : فقال حفص الفرد:

لاحفظك الله ولارعاك حتى تتوب مما أنت فيه . وقال أيضا : لوعلم الناس مافى الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد . وقال أيضا اذا سمعت الرجل يقول : الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له . قال الزعفرانى قال الشافعى حكمى فى أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام

وقال أحمد بن حنبل : لايفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل . وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا فى الرد علي المبتدعة ، وقال له ويحك ألست تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم! ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث ! وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة

وقال مالك رحمه الله : أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت . وقال مالك رحمه الله أيضا : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء . فقال بعض أصحابه فى تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا

وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام تزندق

وقال الحسن : لاتجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم . وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا . ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه ، وقالوا : ماسكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر : ولذلك : قال النبى صلى الله عليه وسلم [1] « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ، هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ؟ »أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء

واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه [2] فقد عَلَّمَهُمُ الاسْتِنْجَاءَ [3] وَنَدَبَهُمْ إِلَى عِلْمِ

(١) حديث هلك المتنطعون مسلم من حديث ابن مسعود
(٢) حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنجاء مسلم من حديث سلمان الفارسى
(٣) حديث ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم : ابن ماجه من حديث أبى هريرة تعلموا الفرائض وعلموها الناس الحديث وللترمذى من حديث أنس وأفرضهم زيد بن ثابت

اَلْفَرَائِضِ وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ [1] وَنَهَاهُمْ عَنِ الْكَلَامِ فِي الْقَدَرِ وَقَالَ : أَمْسِكُوا عَنِ الْقَدَرِ » وعلى هذا استمر الصحابة رضى الله عنهم فالزيادة على الاستاذ طغيان وظلم ، وهم الاستاذون والقدوة ، ونحن الاتباع والتلامذة .

وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا : إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض . وهذه الاصطلاحات الغريبة التى لم تعهدها الصحابة رضي الله عنهم فالأمر فيه قريب ، إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه ، ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع ، الى جميع الاسئلة التي تورد على القياس ، لما كانوا يفقهونه فاحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كاحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها فى مباح .

وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نعنى به الا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء فى الشرع ، فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ؟

وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضى اليه الكلام ، فذلك محرم ، ويجب الاحتراز عنه ، كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضى اليه علم الحديث والتفسير والفقه ، وهو محرم يجب الاحتراز عنه ، ولكن لايمنع من العلم لأجل أدائه اليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) . وقال عز وجل : (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ). وقال تعالى : (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا) ـ أى حجة وبرهان . وقال تعالى : (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) ـ وقال تعالي : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ) إلى قوله: (فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ) اذ ذكر سبحانه احتجاج ابراهيم ومجادلته وافحامه خصمه فى معرض الثناء عليه . وقال عز وجل: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) : وقال تعالى : (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا) وقال تعالى فى قصة فرعون : (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) إلى قوله : (أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

وعلى الجملة فالقرءان من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار . فعمدة أدلة المتكلمين فى

(١) حديث نهاهم عن الكلام فى القدر وقال : أمسكوا : تقدم فى العلم

التوحيد قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا) . وفى النبوة : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) وفى البعث : (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) الى غير ذلك من الآيات والأدلة

ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم قال تعالى : (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) فالصحابة رضى الله عنهم أيضا كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة ، وكانت الحاجة اليه قليلة فى زمانهم

وأوّل من سنّ دعوة المبتدعة بالمجادلة الى الحق على بن أبى طالب رضى الله عنه ، اذ بعث ابن عباس رضى الله عنهما الى الخوارج فكلمهم فقال : ما تنقمون على إمامكم ؟ قالوا : قاتل ولم يسبُ ولم يغنم . فقال : ذلك فى قتال الكفار ، أرأيتم لو سبيت عائشة رضي الله عنها فى يوم الجمل فوقعت عائشة رضى الله عنها فى سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهى أمكم فى نص الكتاب ؟ فقالوا : لا ، فرجع منهم الى الطاعة بمجادلته ألفان

وروى أن الحسن ناظر قدَريا فرجع عن القدر . وناظر على بن أبى طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية . وناظر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يزيد بن عميرة فى الايمان ، قال عبد الله لو قلت إنى مؤمن لقلت إني فى الجنة ، فقال له يزيد بن عميرة : يا صاحب رسول الله هذه زلة منك ، وهل الايمان الا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ، ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمنا أننا من أهل الجنة ، فمن أجل ذلك نقول انا مؤمنون ولا نقول انا من أهل الجنة ، فقال ابن مسعود : صدقت والله إنها منى زلة ، فينبغى أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا ، وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذه صناعة ، فيقال اما قلة خوضهم فيه فانه كان لقلة الحاجة اذ لم تكن البدعة تظهر فى ذلك الزمان

واما القصر فقد كان الغاية إفحام الخصم واعترافه وانكشاف الحق وازالة الشبهة ، فلو طال إشكال الخصم أو لجاجه لطال لا محالة إلزامهم ، وما كانوا يقدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعد الشروع فيها

وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم فى الفقه والتفسير والحديث

أيضا ، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التى لاتتفق إلا على الندور إما ادخارا ليوم وقوعها وإن كان نادراً ، أو تشحيذاً للخواطر ، فنحن أيضا نرتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة ، أو هيجان مبتدع ، أو لتشحيذ الخاطر ، أو لادخار الحجة حتي لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتجال، كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال . فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين

فان قلت : فما المختار عندك فيه فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه فى كل حال أو بحمده فى كل حال خطأ، بل لا بدفيه من تفصيل . فاعلم أولا أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأعنى بقولى لذاته أن علة تحريمه وصف فى ذاته وهو الإسكار والموت . وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ، ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار ، وإباحة تجرع الخمر إذا غص الانسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر . وإلى مايحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم فى وقت الخيار ، والبيع وقت النداء ، وكأكل الطين ، فانه يحرم لما فيه من الاضرار . وهذا ينقسم إلى مايضر قليله وكثيره ، فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذى يقتل قليله وكثيره ، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالاباحة كالعسل ، فان كثيره يضر بالمحرور ، وكأكل الطين و كان اطلاق التحريم على الطين والخمر ، والتحليل على العسل ، التفات الى أغلب الأحوال . فإنْ تصدّى شيء تقابلت فيه الاحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصّل

فنعود الى علم الكلام ونقول : إن فيه منفعة وفيه مضرة ،فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفاع حلال أو مندوب اليه أو واجب كما يقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام . أما مضرته فإثارة الشبهات ، وتحريك العقائد ، وإزالتها عن الجزم والتصميم ، فذلك مما يحصل فى الابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الاشخاص.فهذا ضرره فى الاعتقاد الحق

وله ضرر آخر فى تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة ، وتثبيته فى صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الأصرار عليه ، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل ، ولذلك ترى المبتدع العامى يمكن أن يزول اعتقاده باللطف فى أسرع زمان ، إلا

اذا كان نشؤه فى بلد يظهر فيها الجدل والتعصب ،فانه لو اجتمع عليه الأوّلون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره ، بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولى على قلبه ويمنعه من ادراك الحق ، حتى لو قيل له : هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك ، لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه. وهذا هو الداء العضال الذى استطار فى البلاد والعباد ، وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب . فهذا ضرره

وأما منفعته ، فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه ، وهيهات ، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا اذا سمعته من محدّث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ماجهلوا . فأسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلل فيه الى منتهى درجة المتكامين ، وجاوز ذلك الى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق الى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود

ولعمرى لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وايضاح لبعض الأمور ، ولكن على الندور فى أمور جلية تكاد تفهم قبل التعمق فى صنعة الكلام ، بل منفعته شيء واحد ، وهو حراسة العقيدة التى ترجمناها على العوام ، وحفظها عن تشويشات المبتدعة بانواع الجدل ، فان العامى ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسدا ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه ، والناس متعبدون بهذه العقيدة التى قدمناها ، إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم ، وأجمع السلف الصالح عليها ، والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة ، كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب . واذا وقعت الاحاطة بضرره ومنفعته فينبغى أن يكون كالطبيب الحاذق فى استعمال الدواء الخطر ، اذ لا يضعه إلا فى موضعه ، وذلك فى وقت الحاجة ، وعلى قدر الحاجة

وتفصيله أن العوام المشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامة عقائدهم التى اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذى ذكرناه ، فان تعليمهم الكلام ضرر محض فى حقهم إذ ربما يثير لهم شكا ، ويزلزل عليهم الاعتقاد ، ولا يمكن القيام بعد ذلك بالاصلاح

وأما العامي المعتقد للبدعة فينبغى أن يدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب ، وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر فى القلب القريب من سياق أدلة القرءان والحديث الممزوج بفن من الوعظ والتحذير ،فان ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين، إذ العامى إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده . فان عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضا يقدرون على دفعه . فالجدل مع هذا ومع الأول حرام ، وكذا من وقع فى شك ، إذ يجب إزالته باللطف والوعظ ، والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام

واستقصاء الجدل إنما ينفع فى موضع واحد وهو أن يفرض عامي اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق ، وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية ، فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل . فجاز أن يلقى اليه

واما فى بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذى ذكرناه ، ولا يتعرض للأدلة ، ويتربص وقوع شبهة فان وقعت ذكر بقدر الحاجة

فان كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا ، فلا بأس أن يعلموا القدر الذى أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سبباً لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم . وهذا مقدار مختصر . وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره

فان كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت فى نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذى ذكرناه فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد وهو قدر خمسين ورقة ، وليس فيه خروج عن النظر فى قواعد العقائد ، إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين

فان أقنعه ذلك عنه ، وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة ، والداء غالباً ، والمرض سارياً ، فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه ، وينتظر قضاء الله تعالى فيه ، إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه ، أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له

فالقدر الذى يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذى يرجى نفعه

فأما الخارج منه فقسمان (أحدهما) بحث عن غير قواعد العقائد، كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان، وعن الادراكات، وعن الخوض فى الرؤية: هل لها ضد يسمى المنع أو العمى؛ وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع مالا يرى، أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده، إلى غير ذلك من الترهات المضلات. والقسم الثانى: زيادة تقرير لتلك الأدلة فى غير تلك القواعد، وزيادة أسئلة وأجوبة، وذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلا ضلالا وجهلا فى حق من لم يقنعه ذلك القدر. فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير عموصاً

ولو قال قائل: البحث عن حكم الادراكات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر، والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد، فلا بأس بتشحيذه، كان كقوله لعب الشطرنج يشحذ الخاطر فهو من الدين أيضا، وذلك هوس، فان الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام، والحال التى يذم فيها، والحال التى يحمد فيها، والشخص الذى ينتفع به، والشخص الذى لا ينتفع به

فان قلت مهما اعترفت بالحاجة اليه فى دفع المبتدعة، والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة، فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرها، وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم، ولو ترك بالكلية لا ندرس، وليس فى مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة مالم يتعلم، فينبغى أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضا من فروض الكفايات، بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم، فان الحاجة ما كانت ماسة اليه

فاعلم أن الحق أنه لا بد فى كل بلد من قائم بهذا العلم، مستقل بدفع شبه المبتدعة التى ثارت فى تلك البلدة، وذلك يدوم بالتعليم، ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير، فان هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء، وضرر الغذاء لا يحذر، وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر

فالعالم ينبغى أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال

(احداها) التجرد للعلم والحرص عليه، فان المحترف يمنعه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت.

(الثانية) الذكاء والفطنة والفصاحة ، فان البليد لا ينتفع بفهمه والقدم لا ينتفع بحجاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجى فيه نفعه

(الثالثة) أن يكون فى طبعه الصلاح والديانة والتقوى ، ولا تكون الشهوات غالبة عليه ، فان الفاسق بادنى شبهة ينخلع عن الدين ، فان ذلك يحل عنه الحجر و يرفع السد الذى بينه وبين الملاذ ، فلا يحرص على إزالة الشبة بل يغتنمها ليتخلص من أعباء التكليف ، فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه

واذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة فى الكلام إنما هي من جنس حجج القرءان من الكلمات اللطيفة المؤثرة فى القلوب ، المقنعة للنفوس ، دون التغلغل فى التقسيمات والتدقيقات التى لا يفهمها أكثر الناس ، واذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتلبيس . فاذا قابله مثله فى الصنعة قاومه . وعرفت أن الشافعى وكافة السلف انما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذى نبهنا عليه ، وأن ما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما من مناظرة الخوارج وما نقل عن علىّ رضى الله عنه من المناظرة فى القدر وغيره ، كان من الكلام الجلى الظاهر وفى محل الحاجة ، وذلك محمود فى كل حال . نعم : قد تختلف الأعصار فى كثرة الحاجة وقلتها، فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك . فهذا حكم العقيدة التى تعبد الخلق بها ، وحكم طريق النضال عنها وحفظها . فأما ازالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ماهى عليه ، وإدراك الآسرار التى يترجمها ظاهر ألفاظ هذه العقيدة ، فلا مفتح له الا المجاهد ، وقمع الشهوات والاقبال بالكلية على الله تعالى وملازمة الفكر الصافى عن شوائب المجادلات ، وهى رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لنفحاتها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب ، وذلك البحر الذى لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله

مسألة

فان قلت : هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار ، وبعضها جلي يبدو أولا ، وبعضها خفى يتضح بالمجاهدة والرياضة والطلب الحثيث والفكر الصافى والسر الخالى عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب ، وهذا يكاد يكون مخالفا للشرع ، إذ

ليس للشرع ظاهر وباطن وسر وعلن ، بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه

فاعلم أن انقسام هذه العلوم الى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيره ، وإنما ينكرها القاصرون الذين تلقفوا فى أوائل الصبا شيئا وجمدوا عليه ، فلم يكن لهم ترق الى شأو العلاء ، ومقامات العلماء والأولياء ، وذلك ظاهر من أدلة الشرع . قال صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ لِلْقُرْءانِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَحَدًّا وَمَطْلَعاً » وقال علىّ رضى الله عنه وأشار الى صدره : ان ها هنا علوما جمة لو وجدت لها حملة . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ » وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَا حَدَّثَ أَحَدٌ قَوْمًا بِحَدِيثٍ لَمْ تَبْلُغْهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ فِتْنَةً عَلَيْهِم » وقال الله تعالى : (وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ ٱلْعَالِمُونَ). وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِنَّ مِنَ ٱلْعِلْمِ كَهَيْئَةِ ٱلْمَكْنُونِ لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ ٱلْعَالِمُونَ بِاللهِ تَعَالَى » الحديث الى آخره كما أوردناه فى كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً » فليت شعرى إن لم يكن ذلك سرا منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه أو لمعنى آخر ، فلم لم يذكره لهم، ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم ؟

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل : (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) : لو ذكرت تفسيره لرجمتمونى . وفى لفظ آخر لقلتم إنه كافر وقال أبو هريرة رضى الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته وأما الآخر لو بثثته لقطع هذا الحلقوم . وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « مَا

---

(١) حديث ان للقرآن ظاهرا وباطنا الحديث ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه

(٢) حديث نحن معاشر الانبياء أمرنا أن نكلم الناس على عقولهم ـ الحديث : تقدم في العلم

(٣) حديث ماحدث أحد قوما بحديث لم تبلغه عقولهم ـ الحديث : تقدم فى العلم

(٤) حديث ان من العلم كهيئة المكنون ـ الحديث تقدم فى العلم

(٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا أخرجاه من حديث عائشة وأنس

(٦) حديث ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ـ الحديث : تقدم فى العلم .

فَضَلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ وَلَكِنْ بِسِرٍّ وَقَرَ فِي صَدْرِهِ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . ولاشك فى أن ذلك السر كان متعلقا بقواعد الدين غير خارج منها ، وما كان من قواعد الدين لم يكن خافيا بظواهره على غيره

وقال سهل التسترى رضى الله عنه : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر ، وعلم باطن لايسعه إظهاره الا لأهله ، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد . وقال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر . وقال بعضهم : للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوّة ، وللنبوّة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو أظهروه لبطلت الأحكام وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوّة فى حق الضعفاء لقصور فهمهم فما ذكره ليس بحق ، بل الصحيح أنه لا تناقض فيه ، وأن الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، وملاك الورع النبوة

مسألة

فان قلت : هذه الآيات والأخبار يتطرق اليها تأويلات ، فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن ، فان الباطن إن كان مناقضا للظاهر ففيه إبطال الشرع ، وهو قول من قال إن الحقيقة خلاف الشريعة ، وهو كفر ، لأن الشريعة عبارة عن الظاهر ، والحقيقة عبارة عن الباطن ، وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هو ، فيزول به الانقسام ، ولا يكون للشرع سر لا يفشى ، بل يكون الخفى والجلى واحداً

فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطبا عظيما ، وينجرّ الى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة ، وهو غرض هذه الكتب ، فان العقائد التى ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقينها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها ، لا بأن يتوصل الى أن ينكشف لنا حقائقها ، فان ذلك لم يكلف به كافة الخلق ، ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه فى هذا الكتاب ، ولولا أنه عملُ ظاهر القلب لاعمل باطنه لما أوردناه فى الشطر الاول من الكتاب وانما الكشف الحقيقى هو صفة سر القلب وباطنه ، ولكن اذا انجر الكلام الى تحريك خيال فى مناقضة الظاهر للباطن فلا بد من كلام وجيز فى حله :

فمن قال : إن الحقيقة تخالف الشريعة أو الباطن يناقض الظاهر ، فهو الى الكفر أقرب منه الى الايمان ، بل الأسرار التى يختص بها المقربون يدركها ، ولا يشاركهم الأكثرون فى

عملها ، ويمتنعون عن إفشائها اليهم ترجع الى خمسة أقسام

القسم الأوّل ـ أن يكون الشيء فى نفسه دقيقا تكلّ أكثر الافهام عن دركه ، فيختص بدركه الخواص ، وعليهم أن لا يفشوه الى غير أهله ، فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك . وإخفاءُ سر الروح [1] وَ« كَفُّ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ بَيَانِهِ » من هذا القسم ، فان حقيقته مما تكل الأفهام عن دركه ، وتقصر الأوهام عن تصوّر كنهه

ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ، ومن لم يعرف نفسه ، فكيف يعرف ربه سبحانه ؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفا لبعض الأولياء والعلماء ، وان لم يكونوا أنبياء ، ولكنهم يتأدبون بآداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه ، بل فى صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها الا الظواهر للأفهام : من العلم ، والقدرة ، وغيرهما ، حتى فهمها الخلق بنوع مناسبة توهموها الى علمهم وقدرتهم ،اذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علما وقدرة ، فيتوهمون ذلك بنوع مقايسة ، ولو ذكر من صفاته ماليس للخلق مما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه ، بل لذة الجماع اذا ذكرت للصبي أو العنين لم يفهمها الا بمناسبة الى لذةالمطعوم الذى يدركه ، ولا يكون ذلك فهما على التحقيق . والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل

وبالجملة فلا يدرك الانسان الا نفسه وصفات نفسه مما هى حاضرة له فى الحال ، أو مما كانت له من قبل ، ثم بالمقايسة اليه يفهم ذلك لغيره ، ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتا فى الشرف والكمال ، فليس فى قوة البشر إلا أن يثبت لله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بان ذلك أكمل وأشرف ، فيكون معظم تحويمه على صفات نفسه لاعلى ما اختص الرب تعالى به من الجلال ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [2] « لَاأُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » وليس المعنى أنى أعجز عن التعبير عماأدركته ، بل هو اعتراف بالقصور

---

(١) حديث كف رسول الله صلي الله عليه وسلم عن بيان الروح الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيأ ـ الحديث :

(١) حديث لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك مسلم من حديث عائشة انها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك فى سجوده

عن إدراك كنه جلاله . ولذلك قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عزوجل . وقال الصدّيق رضى الله عنه : الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلا الى معرفته إلا بالعجز عن معرفته

ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط . ولنرجع الى الغرض وهو أن أحد الأقسام ما تكل الأفهام عن أدراكه ، ومن جملته الروح ، ومن جملته بعض صفات الله تعالى . ولعل الاشارة الى مثله فى قوله صلى الله عليه وسلم (١) «إِنَّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ سَبْعِينَ حِجَاباً مِنْ نُورٍ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ مَنْ أَدْرَكَهُ » بَصَرُهُ

القسم الثانى — من الخفيات التى تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم فى نفسه لا يكل الفهم عنه ، ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ، ولا يضر بالانبياء والصديقين . وسر القدر الذى منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم ، فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضرا ببعض الخلق ، كما يضر نور الشمس بابصار الخفافيش ، وكما تضر رياح الورد بالجعل ، وكيف يبعد هذا وقولنا أن الكفر والزنا والمعاصى والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حق فى نفسه وقد أضر سماعه بقوم ، اذ أوهم ذلك عندهم أنه دلالة على السفه ، ونقيض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم . وقد ألحد بن الراوندى وطائفة من المخذولين بمثل ذلك ، وكذلك سر القدر ، ولو أفشى لأوهم عند أكثر الخلق عجزا اذ تقصر أفهامهم عن ادراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم . ولو قال قائل : ان القيامة لو ذكر ميقاتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوما ، ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفا من الضرر ، فلعل المدة اليها بعيدة فيطول الامد ، واذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل اكتراثها ، ولعلها كانت قريبة فى علم الله سبحانه ، ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا . فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم

---

(١) حديث ان لله سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجابا من نور واسناده ضعيف . وفيه أيضا من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك قال ان بينى وبينه سبعين حجابا من نور وفى الأكبر للطبرانى من حديث سهل بن سعد دون الله تعالى ألف حجاب من نور وظلمة ولمسلم من حديث أبى موسى حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه ولابن ماجه شىء أدكه بصره

القسم الثالث ـ أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ، ولكن يكنى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ، ليكون وقعه فى قلب المستمع أغلب ، وله مصلحة فى أن يعظم وقع ذلك الأمر فى قلبه ، كما لو قال قائل : رأيت فلانا يقلد الدر فى أعناق الخنازير ، فكني به عن افشاء العلم وبث الحكمة الى غير أهلها ، فالمستمع قد يسبق الى فهمه ظاهر اللفظ ، والمحقق اذا نظر وعلم أن ذلك الانسان لم يكن معه در ولا كان فى موضعه خنزير تفطن لدرك السر والباطن ، فيتفاوت الناس فى ذلك . ومن هذا قال الشاعر :

رجلان خياط وآخر حائك * متقابلان على السماك الأعزل

لازال ينسج ذاك خرقةمدبر * ويخيط صاحبه ثياب المقبل

فانه عبر عن سبب سماوى فى الاقبال والادبار برجلين صانعين . وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التى تتضمن عين المعنى أومثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنَّ ٱلْمَسْجِدَ لَيَنْزَوِي مِنَ ٱلنُّخَامَةِ كَمَا تَنْزَوِى ٱلْجِلْدَةُ عَلَى ٱلنَّارِ » وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة . ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فيه تحقير له ، فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجلدة . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (٢) « أَمَا يَخْشَى ٱلَّذِى يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ ٱلْإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ ٱللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ !؟ » وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ، ولكن من حيث المعني هو كائن ، إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله ، بل بخاصيته وهى البلادة والحمق . ومن رفع رأسه قبل الامام فقد صار رأسه رأس حمار فى معنى البلادة والحمق وهو المقصود ، دون الشكل الذى هو قالب المعنى ، اذ من غاية الحمق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فانهما متناقضان

وإنما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلى أو شرعى

أما العقلى فأن يكون حمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم : (٣) « قَلْبُ ٱلْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ ٱلرَّحْمٰنِ » إذ لو فتشنا عن قلوب المؤمنين فلم نجد فيها أصابع

(١) حديث ان المسجد لينزوي من النخامة ـ الحديث : لم أجد له أصلا

(٢) حديث أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام ـ الحديث : أخرجاه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث قلب العبدبين أصبعين من أصابع الرحمن مسلم من حديث عبد الله بن عمرو

فعلم أنها كناية عن القدرة التى هى سر الأصابع وروحها الخفى ، وكنى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقعا فى تفهم تمام الاقتدار . ومن هذا القبيل فى كنايته عن الاقتدار قوله تعالى : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) فان ظاهره ممتنع ؛ إذ قوله : (كن) إن كان خطابا للشيء قبل وجوده فهو محال ؛ إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يمتثل ، وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين ، ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع فى النفوس فى تفهيم غاية الاقتدار عدل اليها

وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ، ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد فى تفسير قوله تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) الآية ، وأن معنى الماء ها هنا هو القرءان ، ومعنى الأودية هى القلوب ، وأن بعضها احتملت شيئا كثيراً ، وبعضها قليلا ، وبعضها لم يحتمل ، والزبد مثل الكفر والنفاق ، فانه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فانه لا يثبت ، والهداية التى تنفع الناس تمكث . وفى هذا القسم تعمق جماعة فأوّلوا ما ورد فى الآخرة من الميزان والصراط وغيرهما ، وهو بدعة ، إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية ، وإجراؤه على الظاهر غير محال ، فيجب إجراؤه على الظاهر

القسم الرابع ـ أن يدرك الانسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والذوق بأن يصير حالا ملابسا له ، فيتفاوت العلمان ويكون الأول كالقشر ، والثانى كاللباب ، والأول كالظاهر ، والثانى كالباطن ، وذلك كما يتمثل للانسان فى عينه شخص فى الظلمة أو على البعد فيحصل له نوع علم ، فاذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ، ولا يكون الأخير ضد الأول بل هو استكمال له . فكذلك العلم والايمان والتصديق ، إذ قد يصدق الانسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ، ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع ، بل للإنسان فى الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة . (الأول) تصديقه بوجوده قبل وقوعه . (والثانى) عند وقوعه (والثالث) بعد تصرمه ، فان تحققك بالجوع بعد زواله يخالف التحقق به قبل الزوال . وكذلك من علوم الدين مايصير ذوقا فيكمل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ماقبل ذلك ، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها . فى هذه الأقسام الأربعة تتفاوت

الخلق ، وليس فى شيء منها باطن يناقض الظاهر ، بل يتممه ويكمله كما يتمم اللب القشر . والسلام

القسم الخامس — أن يعبر بلسان المقال عن لسان الحال ، فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده نطقا ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه . وهذا كقول القائل : قال الجدار للوتد : لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني فلم يتركني ورائى الحجر الذى ورائى . فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال . ومن هذا قوله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) . فالبليد يفتقر فى فهمه الى أن يقدر لهما حياة و عقلا ، وفهما للخطاب ، وخطابا هو صوت وحرف تسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان : أتينا طائعين ، والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال ، وأنه إنباء عن كونهما مسخرتين بالضرورة ومضطرتين الى التسخير . ومن هذا قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول سبحان الله ليتحقق تسبيحه ، والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان ، بل كونه مسبحا بوجوده ، ومقدسا بذاته ، وشاهدا بوحدانية الله سبحانه ، كما يقال

وفى كل شيء له آية • تدل على أنه الواحد

وكما يقال : هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم ، لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ، ولكن بالذات والحال . وكذلك : ما من شيء إلا وهو محتاج فى نفسه إلى موجد يوجده ويبقيه ويديم أوصافه ويردده فى أطواره . فهو بحاجته يشهد لخالقه بالتقديس ، يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر ، ولذلك قال تعالى : (وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) . وأما القاصرون فلا يفقهون أصلا . وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكماله ، إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ، ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته . وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة . فهذا الفن أيضا مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر فى علمه ، وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر

وفى هذا المقام لأرباب المقامات إسراف واقتصاد : فمن مسرف فى رفع الظواهر انتهى الى تغيير جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها ، حتى حملوا قوله تعالى : (وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ) وقوله تعالى : (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ

كلَّ شيءٍ) وكذلك المخاطبات التي تجرى من منكر ونكير ، وفى الميزان والصراط والحساب ، ومناظرات أهل النار وأهل الجنة فى قولهم : (أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ) زعموا أن ذلك كله بلسان الحال

وغلا آخرون فى حسم الباب ، منهم أحمد بن حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله: (كُنْ فَيَكُونُ) وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى فى كل لحظة بعدد كَوْن كل مكوّن ، حتى سمعت بعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ : قوله صلى الله عليه وسلم (١) « اَلْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي أَرْضِهِ » وقوله صلى الله عليه وسلم « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » وقوله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنِّي لَأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمٰنِ مِنْ جَانِبِ الْيَمَنِ » ومال الى حسم الباب أرباب الظواهر

والظن بأحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء ليس هو الاستقرار ، والنزول ليس هو الانتقال ؛ ولكنه منع من التأويل حسما للباب ، ورعاية لصلاح الخلق ، فانه إذا فتح الباب اتسع الخرق ، وخرج الأمر عن الضبط ، وجاوز حد الاقتصاد ، إذ حد ما جاوز الاقتصاد لا ينضبط ، فلا بأس بهذا الزجر

ويشهد له سيرة السلف ، فانهم كانوا يقولون أمِرّوها كما جاءت ، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة

وذهبت طائفة الى الاقتصاد ، وفتحوا باب التأويل فى كل ما يتعلق بصفات الله سبحانه ، وتركوا ما يتعلق بالآخرة على ظواهرها ، ومنعوا التأويل فيه وهم الأشعرية

وزاد المعتزلة عليهم حتى أوّلوا من صفاته تعالى الرؤية ، وأوّلوا كونه سميعا بصيرا ، وأوّلوا المعراج ، وزعموا أنه لم يكن بالجسد ، وأوّلوا عذاب القبر ، والميزان ، والصراط ، وجملة من أحكام الآخرة ، ولكن أقروا بحشر الأجساد ، وبالجنة واشتمالها على المأكولات والمشمومات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ، وبالنار واشتمالها على جسم محسوس محرق يحرق الجلود ويذيب الشحوم

---

(١) حديث الحجر يمين الله فى الأرض الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو

(٢) حديث انى لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن أحمد من حديث أبى هريرة فى حديث قال فيه وأجد نفس ربكم من قبل اليمن ورجاله ثقات

ومن ترقيهم الى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ما ورد فى الآخرة ، وردوه الى آلام عقلية وروحانية ، ولذات عقلية ، وأنكروا حشر الأجساد ، وقالوا ببقاء النفوس ، وأنها تكون إما معذبة وإما منعمة بعذاب ونعيم لا يدرك بالحس . وهؤلاء هم المسرفون

وحد الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الحنابلة دقيق غامض لا يطلع عليه الا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لابالسماع . ثم إذا انكشفت لهم أسرار الأمور على ماهي عليه نظروا الى السمع والألفاظ الواردة : فما وافق ما شاهدوه بنور اليقين قرروه ، وما خالف أولوه . فأما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد ،فلايستقر له فيها قدم، ولا يتعين له موقف ، والأليق بالمقتصر على السمع المجرد مقام أحمد بن حنبل رحمه الله

والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد فى هذه الأمور داخل فى علم المكاشفة ؛ والقول فيه يطول ، فلا نخوض فيه . والعرض بيان موافقة الباطن الظاهر وأنه غير مخالف له. فقد انكشفت بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة

وإذا رأينا أن نقتصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التي حررناها ، وأنهم لا يكلفون غير ذلك فى الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فيرقى فى الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لوامع من الأدلة مختصرة من غير تعمق ، فلنورد فى هذا الكتاب تلك اللوامع، ولنقتصر فيها على ما حررناه لأهل القدس ، وسميناه الرسالة القدسية فى قواعد العقائد، وهى مودعة فى هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب

الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد فى لوامع الأدلة للعقيدة التى ترجمناها بالقدس

فنقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى ميز عصابة السنة بأنوار اليقين ، وآثر رهط الحق بالهداية إلى دعائم الدين ، وجنبهم زيغ الزائغين وضلال الملحدين ، ووفقهم للاقتداء بسيد المرسلين ، وسددهم للتأسى بصحبه الأكرمين ، ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحبل المتين ، ومن سير الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين ،فجمعوا

بالقبول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول ، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ليس له طائل ولا محصول ، إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الأقطاب والأصول ، وعرفوا أن كلمتي الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الاله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول ، وعلموا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة ، ويدور كل ركن منها على عشرة أصول :

الركن الأول : في معرفة ذات الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول ، وهي : العلم بوجود الله تعالى ، وقدمه ، وبقائه ، وأنه ليس بجوهر ، ولا جسم ولا عرض ، وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مستقراً على مكان ، وأنه يرى ، وأنه واحد

الركن الثاني : في صفاته ، ويشتمل على عشرة أصول ، وهو : العلم بكونه حيا ، عالما ، قادراً ، مريداً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلما ، منزها عن حلول الحوادث ، وأنه قديم الكلام ، والعلم ، والإرادة

الركن الثالث : في أفعاله تعالى ، ومداره على عشرة أصول ، وهي : أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأنها مكتسبة للعباد ، وأنها مرادة لله تعالى ، وأنه متفضل بالخلق والاختراع ، وأن له تعالى تكليف مالا يطاق ، وأن له إيلام البرىء ، ولا يجب عليه رعاية الأصلح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع ، وأن بعثه الأنبياء جائز وأن نبوّة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة مؤيدة بالمعجزات

الركن الرابع : في السمعيات ، ومداره على عشرة أصول ، وهي : إثبات الحشر ، والنشر ، وسؤال منكر ونكير ، وعذاب القبر ، والميزان ، والصراط ، وخلق الجنة والنار ، وأحكام الإمامة ، وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم ، وشروط الإمامة

فاما الركن الأوّل من أركان الايمان فى معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

الأصل الأول : معرفة وجوده تعالى

وأوّل ما يستضاء به من الأنوار، ويسلك من طريق الاعتبار، ما أرشد اليه القرءان، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان . وقد قال تعالى : (أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا ، وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ، وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاسًا ، وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) وقال تعالى : (إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ ٱللهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ، وَٱللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) وقال تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ، أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ) إلى قوله : (لِلْمُقْوِينَ) فليس يخفى على من معه أدنى مُسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الله فى الأرض والسموات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره، ومصرفة بمقتضى تدبيره، ولذلك قال الله تعالى : (أَفِى ٱللهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) . ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق الى التوحيد ليقولوا : لا إله إلا الله ، وما أمروا أن يقولوا : لنا إله وللعالم إله ، فإن ذلك كان مجبولا فى فطرة عقولهم من مبدأ نشوهم وفى عنفوان شبابهم

ولذلك قال عز وجل : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ) وقال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرَةَ اللّٰهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّٰهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) فاذاً فى فطرة الانسان وشواهد القرءان ما يغنى عن إقامة البرهان ، ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول :

من بدائه العقول أن الحادث لا يستغنى فى حدوثه عن سبب يحدثه ، والعالم حادث ، فاذاً لا يستغنى فى حدوثه عن سبب . أما قولنا : إن الحادث لا يستغنى فى حدوثه عن سبب فجلي ، فان كل حادث مختص بوقت يجوز فى العقل تقدير تقديمه وتأخيره ، فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر بالضرورة الى المخصص . وأما قولنا : العالم حادث ، فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون ، وهما حادثان ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ففى هذا البرهان ثلاث دعاوى :

الأولى : قولنا : إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون ، وهذه مدركة بالبديهة والاضطرار ، فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافتكار؛ فانمن عقل جسما لا ساكنا ولا متحركا ، كان لمتن الجهل راكبا وعن نهج العقل ناكبا

الثانية : قولنا: إنهما حادثان . ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض ، وذلك مشاهد فى جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد . فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته ، وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه ، فالطارىء منهما حادث لطريانه ، والسابق حادث لعدمه ، لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه ، على ما سيأتى بيانه وبرهانه فى إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس

الثالثة : قولنا : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ، ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهى النوبة الى وجود الحادث الحاضر فى الحال ، وانقضاء ما لا نهاية له محال؛ ولأنه لو كان للفلك دورات لا نهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعا أو وترا ، أو شفعا ووترا جميعا ، أولا شفعا ولا وترا ، ومحال أن تكون شفعا ووتراً جميعا ، أولا شفعا ولا وترا ؛ فان ذلك جمع بين النفى والاثبات ، إذ فى إثبات أحدهما نفى الآخر ، وفى نفي أحدهما إثبات الآخر ، ومحال

أن يكون شفعا ؛ لأن الشفع يصير وترا بزيادة واحد ، وكيف يعوز مالانهاية لهواحد ؟ ! ومحال أن يكون وترا إذ الوتر يصير شفعا بواحد ، فكيف يعوزها واحد مع أنه لا نهاية لأعدادها ؟ ومحال أن يكون لاشفعا ولا وترا ، إذ له نهاية .فتحصل من هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث فهو إذا حادث . وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلى المحدث من المدركات بالضرورة

الأصل الثانى

العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل أزلى ليس لوجوده أول بل أول كل شيء وقبل كل ميت وحى

وبرهانه أنه لو كان حادثا ولم يكن قديما لافتقر هو أيضا إلى محدث ، وافتقر محدثه إلى محدث ، وتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية ، وما تسلسل لم يتحصل ، أو ينتهى إلى محدث قديم هو الأول ، وذلك هو المطلوب الذى سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئه ومحدثه ومبدعه

الأصل الثالث

العلم بأنه تعالى مع كونه أزليا أبديا ليس لوجوده آخر ، فهو الأول والآخر ،والظاهر والباطن، لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه

وبرهانه : أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بمعدم يضاده ، ولو جاز أن ينعدم شيء يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه ، فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العدم إلى سبب ، وباطل أن ينعدم بمعدم يضاده ، لأن ذلك المعدم لو كان قديما لما تصوّر الوجود معه ، وقد ظهر بالأصلين السابقين وجوده وقدمه ، فكيف كان وجوده فى القدم ومعه ضده ؟ فإن كان الضد المعدم حادثا كان محالا إذ ليس الحادث فى مضادته للقديم حتى يقطع وجوده بأولى من القديم فى مضادته للحادث حتى يدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع ، والقديم أقوى وأولى من الحادث

الأصل الرابع

العلم بأنه تعالى ليس بجوهر يتحيز ، بل يتعالى ويتقدس عن مناسبة الحيز

وبرهانه أن كل جوهر متحيز فهو مختص بحيزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكنا فيه أو متحركا عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السكون وهما حادثان ، وما يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ولو تصوّر جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم ، فان سماه مسمٍ جوهراً

ولم يرد به المتحيز كان مخطئا من حيث اللفظ لا من حيث المعنى

الأصل الخامس

العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر ، إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر ، وإذا بطل كونه جوهراً مخصوصا بحيز بطل كونه جسما ، لأن كل جسم مختص بحيز ومركب من جوهر ، فالجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع ، والحركة والسكون ، والهيئة والمقدار . وهذه سمات الحدوث ، ولو جاز أن يعتقد أن صانع العالم جسم ، لجاز أن يعتقد الالهية للشمس والقمر ، أو لشيء آخر من أقسام الأجسام . فان تجاسر متجاسر على تسميته تعالي جسما من غير إرادة التأليف من الجواهر ، كان ذلك غلطا فى الاسم ، مع الإصابة فى نفى معنى الجسم

الأصل السادس

العلم بأنه تعالى ليس بعرض قائم بجسم أو حال فى محل ، لأن العرض مايحل فى الجسم ، فكل جسم فهو حادث لا محالة ، ويكون محدثه موجوداً قبله ، فكيف يكون حالا فى الجسم وقدكان موجوداً فى الأزل وحده وما معه غيره ، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق، كما سيأتى بيانه ، وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض، بل لا تعقل إلا لموجود قائم بنفسه ، مستقل بذاته ، وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ، ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ، وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام ،فإذاً لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، بل هو الحى القيوم الذى ليس كمثله شيء . وأنى يشبه المخلوق خالقه ، والمقدور مقدره ، والمصور مصوره والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه ؟! فاستحال القضاء عليها بمماثلته ومشابهته.

الأصل السابع ـ العلم بأن الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات

فان الجهة إما فوق ، وإما أسفل ، وإما يمين ، وإما شمال : أو قدام ، أو خلف . وهذه الجهات هو الذى خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان ، إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلا ، والآخر يقابله ويسمى رأسا . فحدث اسم الفوق لما يلى جهة الرأس ،

واسم السفل لما يلى جهة الرجل ، حتى إن النملة التى تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق فى حقها تحتا ، وإن كان فى حقنا فوقا . وخلق للإنسان اليدين وإحداهما أقوى من الأخرى فى الغالب ، فحدث اسم اليمين للأقوى ، واسم الشمال لما يقابله ، وتسمى الجهة التى تلى اليمين يمينا ، والأخرى شمالا ، وخلق له جانبين يبصر من أحدهما ويتحرك اليه ، فحدث اسم القدام للجهة التي يتقدم اليها بالحركة ، واسم الخلف لما يقابلها : فالجهات حادثة بحدوث الإنسان ، ولو لم يخلق الانسان بهذه الخلقة بل خلق مستديرا كالكرة ، لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة ، فكيف كان فى الأزل مختصا بجهة والجهة حادثة ؟ أو كيف صار مختصا بجهة بعد أن لم يكن له : أبأن خلق العالم فوقه ، وتعالى عن أن يكون له فوق ، إذ تعالى أن يكون له رأس ، والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس ، أو خلق العالم تحته ، فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل ، والتحت عبارة عما يلى جهة الرجل ، وكل ذلك مما يستحيل فى العقل ، ولأن المعقول من كونه مختصا بجهة أنه مختص بحيز اختصاص الجواهر ، أو مختص بالجواهر اختصاص العرض ، وقد ظهر استحالة كونه جوهراً أو عرضا ، فاستحال كونه مختصا بالجهة . وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطا فى الاسم مع المساعدة على المعنى ، ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذيا له ، وكل محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر ، وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ، ويتعالى عنه الخالق الواحد المدبر . فأما رفع الأيدى عند السؤال إلى جهة السماء ، فهو لأنها قبلة الدعاء ، وفيه أيضا إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء ، تنبيها بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء ، فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء

الأصل الثامن

العلم بأنه تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذى أراد الله تعالى بالاستواء ، وهو الذى لاينافى وصف الكبرياء ، ولايتطرق اليه سمات الحدوث والفناء ، وهو الذى أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال فى القرءان : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء ، كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق * من غير سيف ودم مهراق

واضطر أهل الحق الى هذا التأويل كما اضطر أهل الباطل الى تأويل قوله تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ) إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم ، وحمل قولهصلى الله عليه وسلم : « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » على القدرة والقهر ،وحمل قوله صلى الله عليه وسلم : « الْحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي أَرْضِهِ » على التشريف والإكرام ؛ لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه المحال ، فكذا الاستواء لو ترك على الاستقرار والتمكن لزم منه كون المتمكن جسما مماسا للعرش ، إما مثله أو أكبر منه أو أصغر ، وذلك محال ، وما يؤدى الى المحال فهو محال

الأصل التاسع

العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار ، مرئي بالأعين والأبصار فى الدار الآخرة دار القرار ، لقوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ولا يُرى فى الدنيا تصديقا لقوله عز وجل : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) ولقوله تعالى فى خطاب موسى عليه السلام : (لَنْ تَرَانِي) . وليت شعرى كيف عرف المعتزلى من صفات رب الأرباب ما جهله موسى عليه السلام ؟ ! وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالا ؟! ولعل الجهل بذوى البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم !

وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر ، فهو أنه غير مؤد الى المحال ، فان الرؤية نوع كشف وعلم ، إلا أنه أتم وأوضح من العلم . فإذا جاز تعلق العلم به وليس فى جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة . وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس فى مقابلتهم ، جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة ، وكما جاز أن يعلم من غير كيمية وصورة ، جاز أن يرى كذلك

الأصل العاشر

العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له ، فرد لا ندّ له ، انفرد بالخلق والابداع واستبد بالإيجاد والاختراع ، لا مثل له يساهمه ويساويه ، ولا ضد له فينازعه ويناويه . وبرهانه قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) وبيانه : أنه لو كانا اثنين وأراد

أحدهما أمراً فالثانى إن كان مضطرا الى مساعدته كان هذا الثانى مقهورا عاجزا ولم يكن إلها قادراً ، وإن كان قادراً على مخالفته ومدافعته كان الثانى قويا قاهراً ، والأول ضعيفا قاصراً ولم يكن إلها قادراً

(الركن الثانى العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول)

الأصل الأول

العلم بأن صانع العالم قادر ، وأنه تعالى فى قوله : (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) صادق ، لأن العالم محكم فى صنعته ، مرتب فى خلقته ومن رأى ثوبا من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتطريف ، ثم توهم صدور نسجه عن ميت لااستطاعة له ، أو عن إنسان لاقدرة له ، كان منخلعا عن غريزة العقل ، ومنخرطا فى سلك أهل الغباوة والجهل

الأصل الثانى

العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ، ومحيط بكل المخلوقات ، لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، صادق فى قوله : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) و مرشد إلى صدقه بقوله تعالى : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) أرشدك إلى الاستدلال بالخلق علي العلم بأنك لاتستريب فى دلالة الخلق اللطيف ، والصنع المزين بالترتيب ولو فى الشيء الحقير الضعيف ، علي علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف ، فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى فى الهداية والتعريف

الأصل الثالث

العلم بكونه عز وجل حيا ، فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ، ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك فى حياة الحيوانات عند ترددها فى الحركات والسكنات ، بل فى حياة أرباب الحرف والصناعات ، وذلك انغماس فى غمرة الجهالات والضلالات

الأصل الرابع

العلم بكونه تعالى مريدا لأفعاله ، فلا موجود إلاوهو مستند إلى مشيئته وصادر عن

إرادته ، فهو المبدىء المعيد ، والفعال لما يريد ، وكيف لا يكون مريدا وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده ، ومالاضد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده : والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة ، فلابد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين ، ولوأغنى العلم عن الإرادة فى تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد فى الوقت الذى سبق العلم بوجوده ، لجاز أن يغنى عن القدرة حتى يقال : وجد بغير قدرة ،لأنه سبق العلم بوجوده فيه

الأصل الخامس

العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، وكيف لا يكون سميعا بصيراً والسمع والبصر كمال لامحالة وليس بنقص ؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟ وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص فى جهته والكمال فى خلقه وصنعته ؟ أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا ،فقال له :«لِمَ تَعْبُدُ مَالاَيَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً» ولو انقلب ذلك عليه فى معبوده لأضحت حجته داحضة ودلالته ساقطة ، ولم يصدق قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة ، وعالما بلا قلب ودماغ ، فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة ، وسميعا بلا أذن ، إذ لا فرق بينهما

الاصل السادس

أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام ، وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ، بل لا يشبه كلامه كلام غيره ، كما لا يشبه وجوده وجود غيره . والكلام بالحقيقة كلام النفس ، وإنما الأصوات قطعت حروفا للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات، وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جهلة الشعراء ، حيث قال قائلهم:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا !

ومن لم يعقله عقله ولا نهاه نهاه عن أن يقول : لسانى حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرتى الحادثة قديم ، فاقطع عن عقله طمعك ، وكف عن خطابه لسانك . ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شىء ، وأن الباء قبل السين فى قولك : بسم الله ، فلا يكون

السين المتأخر عن الباء قديما ، فنزه عن الالتفات اليه قلبك ، فلله سبحانه سر فى إبعاد بعض العباد ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام فى الدنيا كلاما ليس بصوت ولا حرف فليستنكر أن يرى فى الآخرة موجوداً ليس بجسم ولا لون وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا جسم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره ، فليعقل فى حاسة السمع ما عقله فى حاسة البصر . وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات ، فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع ما دل عليه بالعبارات . وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة فى ورقة صغيرة ومحفوظة فى مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئى فى مقدار عدسة من الحدقة من غير أن تحل ذات السموات والأرض والجنة والنار فى الحدقة والقلب والورقة ، فليعقل كون الكلام مقروءاً بالألسنة ، محفوظا فى القلوب ، مكتوبا فى المصاحف ، من غير حلول ذات الكلام فيها ، إذ لو حلت بكتاب الله ذات الكلام فى الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه فى الورق ، وحلت ذات النار بكتابة اسمها فى الورق ، ولاحترق

الاصل السابع

أن الكلام القائم بنفسه قديم ، وكذا جميع صفاته ، إذ يستحيل أن يكون محلا للحوادث داخلا تحت التغير بل يجب للصفات من نعوت القدم مايجب للذات فلاتعتريه التغيرات ولا تحله الحادثات بل لم يزل فى قدمه موصوفا بمحامد الصفات ، ولا يزال فى أبده كذلك منزها عن تغير الحالات ، لأن ماكان محل الحوادث لا يخلو عنها ، وما لايخلو عن الحوادث فهو حادث ، وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف ، فكيف يكون خالقها مشاركا لها فى قبول التغير ، وينبنى على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته ، وإنما الحادث هى الأصوات الدالة عليه . وكما عقل قيام طلب التعلم وإرادته بذات الوالد للولد قبل أن يخلق ولده ، حتى إذا خلق ولده وعَقَل وخلق الله له علما متعلقا بما فى قلب أبيه من الطلب ، صار مأموراً بذلك الطلب الذى قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له ، فليعقل قيام الطلب الذى دل عليه قوله عز وجل : (أَخْلَعْ نَعْلَيْكَ) بذات الله ، ومصير موسى عليه السلام مخاطبا به بعد وجوده ، إذ خلقت له معرفة بذلك الطلب ، وسمع لذلك الكلام القديم

الأصل الثامن

أن علمه قديم ، فلم يزل عالما بذاته وصفاته ، وما يحدثه من مخلوقاته ، ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها ، بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلى ، إذلو خلق لنا علم بقدوم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك علم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجدد علم آخر . فهكذا ينبغى أن يفهم قدم علم الله تعالى

الأصل التاسع

أن إرادته قديمة ، وهى فى القدم تعلقت بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلى ، إذلو كانت حادثة لصارمحل الحودات ، ولوحدثت فى غير ذاته لم يكن هو مريدا لها ، كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست فى ذاتك ، وكيفما قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى ، وكذلك الارادة الأخرى تفتقر إلى أخرى ، ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية . ولو جاز أن يحدث إرادة بغير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة

الأصل العاشر

أن الله تعالى عالم بعلم ، حى بحياة ، قادر بقدرة ، ومريد بارادة ، ومتكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر . وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة . وقول القائل : عالم بلا علم ، كقوله : غنىّ بلا مال وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم ، فان العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل . وكما لا يتصوّر قاتل بلا قتل ولا قتيل ولا يتصوّر قتيل بلا قاتل ولا قتل ، كذلك لا يتصوّر عالم بلا علم ، ولا علم بلا معلوم ، ولا معلوم بلا عالم . بل هذه الثلاثة متلازمة فى العقل لا ينفك بعض منها عن البعض : فمن جوز انفكاك العالم عن العلم فليجوّز انفكاكه عن المعلوم ، وانفكاكَ العلم عن العالم إذ لا فرق بين هذه الأوصاف

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى وأوله الركن الثالث من أركان الإيمان)